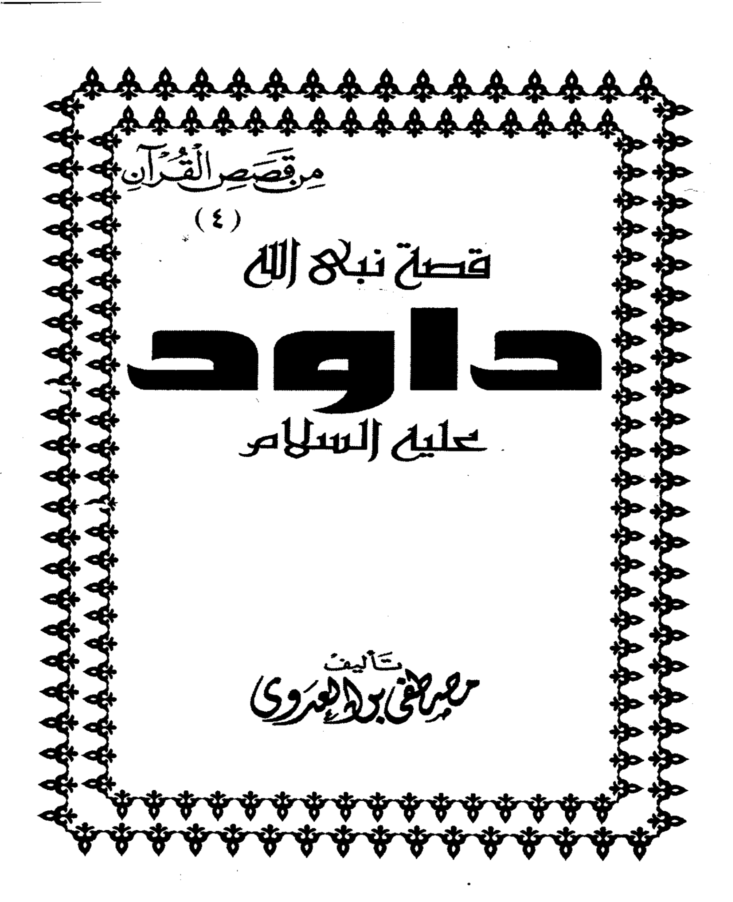


من قصص القرآن

(٤)

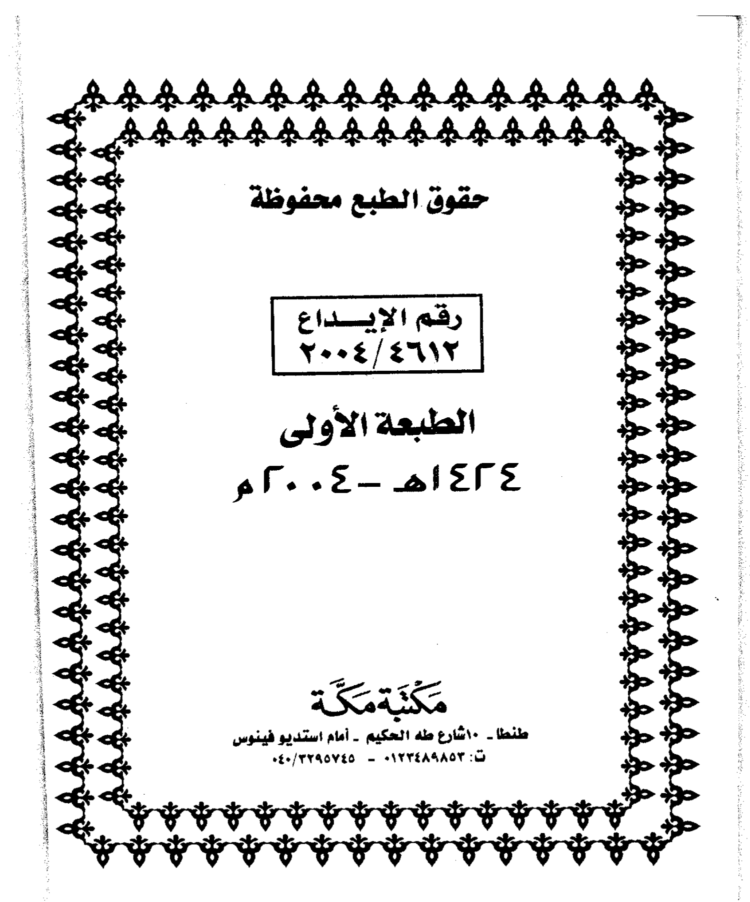
قصة نبي الله

داود

عليه السلام

تأليف

مصطفى بن العدوي



رقم الإيداع
٢٠٠٤/٤٦١٢

الطبعة الأولى
١٤٢٤هـ - ٢٠٠٤م

مَكتبة مَكّة
طنطا - ١٠شارع طه الحكيم - أمام استديو فينوس
ت: ٠١٢٢٣٤٨٩٨٥٣ - ٠٤٠/٣٢٩٥٧٤٥

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، وبعد . . .

فهذا ذِكْرُ نبيِّ الله داود عليه السلام وتلك قصته وبعض خَبَرِهِ، نورده ضمن سلسلة الرسائل المتعلقة بقصص القرآن، وذكر الأنبياء عليهم السلام وشيء من سيرهم مع الإشارة إلى بعض الفوائد الفقهية والآداب الشرعية والأحكام المستنبطة من هذه القصص وتلك السير.

وقد صدرت عدةُ رسائل في هذا الصدد، ولله الحمد.

هذا، وكما هو معلوم فإن قصص الأنبياء تُساق **للاتعاظ والاعتبار**، وكما قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي

قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [يوسف: الآية ١١١].

● وتُساق وتُذْكَر أيضًا **لتثبيت الفؤاد وطمأنة القلوب**، كما قال تعالى: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾ [هود: الآية ١٢٠].

● نُذكِّر بهذه القصص كي **نتأسى بهم في صبرهم، وفي بَذْلهم وعطائهم وتبليغهم رسالات ربهم**، قال تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: الآية ٣٥].

لقد أُمرنا بالاقتداء بهؤلاء الأنبياء والصالحين واتباع سبيلهم قال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾ [الأنعام: الآية ٩٠].

وقال تعالى: ﴿وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ﴾ [لقمان: الآية ١٥].

فمن ثَمَّ ينبغي أن نُجلِّيَ أمرهم ونُظهر صنائعهم وخصالهم وأخلاقهم، تلك الصنائع المباركة المحمودة وتلك الخصال المشكورة، وتلك الأخلاق الكريمة

لعلَّ مدَّكرًا يدَّكرُ، ولعل معتبرًا يعتبر ومتعظًا يتعظ فالذكرى تنفع المؤمنين كما قال رب العالمين.

● وأنبياء الله عمومًا أفضل البشر وأعلمهم بالله وأخشاهم له وأتقاهم، وأبعدهم عن كل شائنةٍ وعيب فبين أيدينا من ثَمَّ سيرةُ نبيٍّ كريم، وخليفة عادلٍ ومجاهدٍ باسلٍ، وعابدٍ مجتهدٍ شديد الاجتهاد في العبادة أنزل الله عليه كتابًا هو **الزبور** فكان يتلوه حق تلاوته، يتلوه بصوت من أحسن الأصوات وأنداها، تتجاوب معه الجبال الراسخات والطيور السارحات، يسبحن بالعشي والإشراق.

● بين أيدينا سيرة نبي كريم أُمرنا بالاقتداء به ضمن من أُمرنا بالاقتداء بهم، ألا وهو نبي الله **داود** عليه السلام قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ

﴿هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْۗ﴾ [الأنعام: الآية ٩٠].

● فمن ثمَّ نذكِّر بشيء من سيرة هذا النبي الكريم سائلين الله أن يجمعنا مع المنعم عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقًا.

هذا، وألفت النظر ها هنا إلى أنني أُنَبِّهُ إن شاء الله على ضَعف ما ضعف من الآثار، وصحة ما صح منها، وبيان الموقوف من المرفوع.

وأيضًا فكلما مررتُ بموطنٍ يُستفاد منه أدبٌ، أو تُستل منه فائدةٌ فقهية، أو يُصحح به معتقد فإني أُجليه وأوضحه راجيًا النفع لي ولإخواني المسلمين، وذلك قدر جهدي واستطاعتي. وما كان من صواب فمن الله، فله النعمة وله الفضل وله الثناء الحسن، وما كان من خطأ فمن نفسي ومن الشيطان، وأستغفر الله منه، وأسأل الله أن يتقبل منا ومن عباده المؤمنين صالح الأعمال، وأن يرفع راية المسلمين عالية فوق كل الرايات وأن يوحد صفوفهم ويجمع كلمتهم على

الحق... آمين.

وصل اللهم على نبينا محمد وسلم والحمد لله رب العالمين.

كتبه

أبو عبد الله مصطفى بن العدوي شلباية

مصر - الدقهلية - منية سمنود

ماذا عن هذا النبي الكريم عليه السلام قبل النبوة والخلافة؟

● إنه من الفئة المؤمنة التي ابتليت فخرجت من الابتلاء سالمة آمنة غانمةً موفقةً.

● إنه من الملأ من بني إسرائيل من بعد موسى!

● هؤلاء الملأ الذين سألوا نبيًّا[١] لهم فقالوا: ﴿ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ﴾ [البقرة: الآية ٢٤٦].

● لكن نبي الله داود عليه السلام لم يتول ولم ينكص على

(١) قيل: إن هذا النبي اسمه (شمويل)، ولكن لا نعلم دليلًا من الكتاب والسنة على ذلك.

عقبيه، ولم يُغيِّر ولم يُبدِّل.

● إن نبينا محمدًا ﷺ وصف هذا النبي الكريم بقوله: «... **ولا يفر إذا لاقى**»(١).

وكيف يفرُّ، والفرار كبيرةٌ من أعظم الكبائر؟!! قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبَارَ ۝١٥ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ۝١٦﴾ [الأنفال: الآيتان ١٥، ١٦].

فكيف يُولي الدّبر إذن؟؟؟!!!

● كيف ذلك والنبي ﷺ يقول: «**اجتنبوا السبع الموبقات**» قالوا: وما هن يا رسول الله؟... فقال: «.... **والتولي يوم الزحف**»(٢)؟!

---

(١) صحيح، وسيأتي إن شاء الله.

(٢) أخرجه البخاري (حديث ٦٨٥٧) ومسلم (حديث ٨٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعًا.

● لم يعترض هذا النبي الكريم قبل نبوته على تأمير طالوت عليهم ولم يحسد طالوت على ما آتاه الله من الفضل، أما غيره من بني إسرائيل فقد اعترضوا و﴿قَالُوٓاْ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِ﴾ [البقرة: الآية ٢٤٧].

● أما أهل الإيمان ومنهم داود عليه السلام فلا يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله، بل هم مباركون أينما كانوا، رؤساء أو مرؤوسين.

● كذلك فإنه عليه السلام قد مرَّ من ابتلاء النهر بسلام وأمان ووفاء وجاوزه مؤمنًا موقنًا بوعد الله عزَّ وجل.

أما غيره فخالفوا أمر ملكهم، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِٱلْجُنُودِ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّى وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّىٓ إِلَّا مَنِ ٱغْتَرَفَ غُرْفَةًۢ بِيَدِهِۦ ۚ فَشَرِبُواْ مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۚ﴾ [البقرة: الآية ٢٤٩].

وداود عليه السلام من هذه القلة المؤمنة الذين امتثلوا

وصبروا فجاوز عليه السلام النهر مؤمنًا مع الفئة المؤمنة - فما جاوز النهر إلا مؤمنٌ - جاوزه في طائفةٍ من أهل الإيمان عددهم عددُ أصحاب بدرٍ من المؤمنين.

أخرج البخاري [١] من حديث البراء رضي الله عنه قال: حدثني أصحاب محمد ﷺ ممن شهد بدرًا أنهم كانوا عدة أصحاب طالوت الذين جاوزوا معه النهر، بضعة عشر وثلاثمائة.

قال البراء: لا والله ما جاوز معه النهر إلا مؤمن.

● وماذا بعد أن جاوزوا النهر؟!!، وماذا لما برزوا لجالوت وجنوده؟!

جاوزوا النهر وبرزوا لجالوت وجنوده فقالوا: ﴿لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ﴾ [البقرة: الآية ٢٤٩].

لكن دواد عليه السلام لم يقل ذلك، بل كان من الطائفة المؤمنة التي تُؤمن بلقاء الله، فكان فيمن قالوا: ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِۗ

(١) البخاري (حديث ٣٩٥٧).

﴿وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [البقرة: الآية ٢٤٩]!!!

● كان فيمن قالوا - لما برزوا لجالوت وجنوده - ﴿رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: الآية ٢٥٠]!!!

● فكان ماذا؟؟؟!!!

● كان أن مكنه الله من قتل جالوت الكافر، فالحمد لله رب العالمين ﴿وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ﴾ [البقرة: الآية ٢٥١].

فهكذا يصبر داود عليه السلام على البلاء، وينجو من ابتلاءٍ تلو ابتلاء وهكذا تكون العاقبة للتقوى!!!

● لم يرتدّ على عقبيه لما فُرض عليه القتال!!

● لم يعترض على تأمير طالوت عليهم!!

● لم يشرب من النهر، بل صبر امتثالًا للأمر!!

● لم يضعف ولم يهن عن لقاء العدو، بل استعان بالله وصبر!!

● لم يترك نفسه لنفسه ولم يغتر بقوته، بل سأل الله العون وطلب منه الصبر والثبات والنصر على الأعداء!!

فصبرٌ يتلوه صبرٌ!! وثباتٌ يتبعه ثبات!!!

واستعانةٌ بالله بعد استعانةٍ! وسؤالُ الله النصر على الأعداء!!

ويقين بالله مع إيمانٍ وصبرٍ!

فبهذا - بعد توفيق الله - **تُناول الإمامة: بالصبر واليقين**، قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [السجدة: الآية ٢٤] نعم تُنال الإمامة بالصبر واليقين.

● وقال تعالى في شأن الخليل إبراهيم عليه السلام: ﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ [البقرة: الآية ١٢٤] ابتلى الله إبراهيم عليه السلام بأوامر ونواهٍ، فامتثل الأمر واجتنب ما نهاه عنه ربه عزَّ وجل، فجعله الله للناس إمامًا!!

● ونبينا محمد ﷺ ابتلي فصبر، ثم كانت العاقبة للتقوى.

وهكذا على الدوام، **تُنال الإمامة بتوفيق الله ثم بالصبر واليقين!.**

وليس ذلك في الإمامة في الدين فحسب، بل في علوم الدنيا كذلك!

تنال بالصبر، فالطبيب الماهر مهارته من الله ثم بما يبذله من جهدٍ لتحصيل العلم والبحث عن طرائقه، والنظر في صنيع من حوله من الأطباء الذين سبقوه أو عاشروه بمهارةٍ في هذا الفن.

وكذا المهندس والفلاح، والمدرس والمُربي، وكلُّ من له مهارةٌ في عمل.

تنال المهارة بإذن الله، ثم بالصبر والمصابرة والتحقيق والتدريب والمتابعة.

فخيرٌ للذين يحسدون الناس على ما آتاهم الله من

فضله أن يسألوا الله التوفيق لهم ولغيرهم، ويُقبلوا جادين مجتهدين راجين ما عند الله، قائلين: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [البقرة: الآية ٢٠١].

هذا خيرٌ لهم لو كانوا يعلمون!!!

- ولنرجع إلى سيرة نبي الله داود عليه السلام، وماذا كان من أمره إذ مكَّنه الله من قتل جالوت.

قال تعالى: ﴿وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ﴾ [البقرة: الآية ٢٥١].

- لقد آتاه الله الملك.
- بل لقد أصبح بعدُ خليفةً في الأرض!!
- قال تعالى: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [ص: الآية ٢٦]!!

ولكنه لم يكن خليفةً ظالمًا ولا ملكًا جائرًا جاهلًا،

بل ﴿وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ [البقرة: الآية ٢٥١].

وكذا فهو عالمٌ بأمور دنياه وسياسة رعاياه قال تعالى: ﴿وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ﴾ [البقرة: الآية ٢٥١].

فهو نبي كريمٌ، وملكٌ حكيمٌ وخليفةٌ عادلٌ، وعالمٌ عابدٌ عليه السلام !!

ثم ماذا كان منه عليه السلام أمام هذه النعم المترادفة والفضل الواسع والعطاء الزائد من الله عزَّ وجل؟!!

لقد كان من الشاكرين!!

لقد امتثل أمر ربه إذ أمره فقال: ﴿ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ﴾ [سبإ: الآية ١٣].

لقد كان من القليل الشاكر.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا ۖ وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥﴾﴾ [النمل: الآية ١٥]، فقدَّم داود حمدًا لله على ما منَّ به وأنعم، وتفضَّل به وتكرَّم.

وبهذا تُزاد النعم، ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم: الآية ٧] فالحمد لله رب العالمين.

وبضدها وبالجحود تزول ﴿وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ [إبراهيم: الآية ٧].

لفتةٌ كريمةٌ:

أمر الله عز وجل نبيه داود بالذي أمره به إذ قال ﴿اعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ﴾ [سبإ: الآية ١١] وهذا مما يتعلق بأمور الدنيا.

والدروع السابغات تتقى بها سهام العدو، فصنعتها صنعة نافعة. فلينظر قوم في أعمالهم، هل أعمالهم نافعةٌ وفيها خيرٌ وصلاحٌ أم ماذا يعملون؟؟

● والذي نلفت النظر إليه أن الله عز وجل بعد أن حث على عملٍ نافعٍ يتعلق كثيرًا بأمور الدنيا - وأمر داود عليه السلام بالدِّقة في هذا العمل بقوله: ﴿وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ﴾ - ذكَّر بأمر الآخرة والعمل لها فقال سبحانه:

﴿وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًاۖ﴾ [سبأ: الآية ١١] أي: وأقبلوا على الله عز وجل بالأعمال الصالحة التي تقربكم إليه.

فيدخل في هذا الصلاةُ والصيام والصدقة وسائر أعمال البر عمومًا.

وكثيرًا ما نُذكَّر بمثل هذا في كتاب الله عز وجل.

فعلى سبيل المثال:

يقول سبحانه: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ وَرِيشٗاۖ﴾ [الأعراف: الآية ٢٦] أي: قد أنزلنا عليكم لباسًا تسترون به عوراتكم، وتتزينون به كذلك، ثم ذكَّر ربُّنا سبحانه وتعالى بلباسٍ هو خيرٌ وأفضل، فقال سبحانه: ﴿وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ ذَٰلِكَ خَيۡرٞۚ﴾ [الأعراف: الآية ٢٦] فذكَّر ربنا سبحانه وتعالى بلباسٍ ينبغي أن نكتسي به وأن نتجلل به وأن تُعمَّر به قلوبنا، ألا وهو لباسُ التقوى.

- ونحوه قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَتَزَوَّدُواْ﴾ [البقرة: الآية ١٩٧] ثم أشار إلى زاد آخر أهم وأعظم فقال: ﴿فَإِنَّ خَيۡرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقۡوَىٰۚ﴾ [البقرة: الآية ١٩٧].

● ونحو هذا التذكير في قول الله تعالى لنبيه سليمان عليه السلام مع الجن، إذ قال تعالى: ﴿يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ﴾ [سَبَإ: الآية ١٣] ثم ذكَّر الله سبحانه وتعالى نبيه سليمان عليه السلام بتقديم شكرٍ لذلك، فقال تعالى: ﴿ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا﴾ [سَبَإ: الآية ١٣].

ألا فليذكر الله الذاكرون، وليشكره الشاكرون.

ألا فليذكر اللهَ التجارُ في تجارتهم والصُّناعُ في صنائعهم و﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٩﴾﴾ [المنافقون: الآية ٩] !!!

عبادة نبي الله داود عليه السلام

وتعبُّدُ نبي الله داود عليه السلام من أفضل التعبد وأحبه إلى الله عز وجل، فصلاته أحب الصلاة إلى الله، وقيامه أحب القيام وصيامه أحب الصيام، وتلاوته من أحب التلاوة وأحسنها وأجملها، ففي الصحيح من حديث عبد الله ابن عمرو رضي الله عنهما قال قال رسول الله ﷺ: «**أَحَبُّ الصِّيَامِ إِلَى اللَّهِ صِيَامُ دَاوُدَ، كَانَ يَصُومُ يَوْمًا وَيُفْطِرُ يَوْمًا، وَأَحَبُّ الصَّلَاةِ إِلَى اللَّهِ صَلَاةُ دَاوُدَ، كَانَ يَنَامُ نِصْفَ اللَّيْلِ وَيَقُومُ ثُلُثَهُ، وَيَنَامُ سُدُسَهُ**»[1].

وفي رواية في الصحيح أيضًا[2]: «**فَصُمْ صَوْمَ دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَام، وَكَانَ يَصُومُ يَوْمًا وَيُفْطِرُ يَوْمًا، وَلَا يَفِرُّ إِذَا لَاقَى**».

---

(١) أخرجه البخاري (حديث ٣٤٢٠) ومسلم (حديث ١١٥٩).

(٢) البخاري (حديث ٣٤١٩).

وفي لفظ آخر في الصحيح[١] أيضًا من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: أُخْبِرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنِّي أَقُولُ: وَاللَّهِ لَأَصُومَنَّ النَّهَارَ وَلَأَقُومَنَّ اللَّيْلَ مَا عِشْتُ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: **«أَنْتَ الَّذِي تَقُولُ وَاللَّهِ لَأَصُومَنَّ النَّهَارَ وَلَأَقُومَنَّ اللَّيْلَ مَا عِشْتُ؟»** قُلْتُ: قَدْ قُلْتُهُ قَالَ: **«إِنَّكَ لَا تَسْتَطِيعُ ذَلِكَ؛ فَصُمْ وَأَفْطِرْ، وَقُمْ وَنَمْ، وَصُمْ مِنَ الشَّهْرِ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ، فَإِنَّ الْحَسَنَةَ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا، وَذَلِكَ مِثْلُ صِيَامِ الدَّهْرِ»** فَقُلْتُ: إِنِّي أُطِيقُ أَفْضَلَ مِنْ ذَلِكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ: **«فَصُمْ يَوْمًا وَأَفْطِرْ يَوْمَيْنِ»** قَالَ: قُلْتُ: إِنِّي أُطِيقُ أَفْضَلَ مِنْ ذَلِكَ قَالَ: **«فَصُمْ يَوْمًا وَأَفْطِرْ يَوْمًا وَذَلِكَ صِيَامُ دَاوُدَ وَهُوَ أَعْدَلُ الصِّيَامِ»** قُلْتُ: إِنِّي أُطِيقُ أَفْضَلَ مِنْهُ يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ: **«لَا أَفْضَلَ مِنْ ذَلِكَ»**.

وعبادة داود هذه إنما هي بتيسير الله له وتسهيله

---

(١) البخاري (حديث ٣٤١٨) ومسلم (حديث ١١٥٩).

عليه، ففي الصحيح من حديث أبي هريرة[(١)] رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**خُفِّفَ عَلَى دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَام الْقُرْآنُ، فَكَانَ يَأْمُرُ بِدَوَابِّهِ فَتُسْرَجُ فَيَقْرَأُ الْقُرْآنَ[(٢)] قَبْلَ أَنْ تُسْرَجَ دَوَابُّهُ[(٣)]، وَلَا يَأْكُلُ إِلَّا مِنْ عَمَلِ يَدِهِ**».

(١) البخاري (حديث ٣٤١٧).

(٢) قيل المراد بالقرآن القراءة، قال الحافظ ابن حجر رحمه الله: في رواية الكشميهني (القراءة) قال: والأصل في هذه اللفظة الجمع، وكل شيء جمعته فقد قرأته، وقيل المراد: الزبور، وقيل: التوراة، وقراءة كل نبي تطلق على كتابه الذي أوحي إليه، وإنما سماه قرآنًا للإشارة إلى وقوع المعجزة به كوقوع المعجزة بالقرآن، أشار إليه صاحب (المصابيح) والأول أقرب، وإنما ترددوا بين الزبور والتوراة لأن الزبور كله مواعظ، وكانوا يتلقون الأحكام من التوراة... (الفتح ٦/ ٥٢٤).

قلت (مصطفى): الكتاب الذي أنزله الله على داود عليه السلام هو الزبور كما هو معلوم، وقد قال تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا﴾ [النساء: الآية ١٦٣].

(٣) سبحان من بارك لداود عليه السلام في وقته، قال الحافظ ابن حجر رحمه الله: وفي الحديث أن البركة قد تقع في الزمن اليسير حتى يقع فيه العمل الكثير.

● وفي كتاب الله عزَّ وجل في شأن الصلاة ﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ﴾ [البقرة: الآية ٤٥] فإذا كان تسهيل العبادة على العباد فضلٌ من الله عز وجل يؤتيه الله من يشاء فلا يسعنا إلا أن نسأله سبحانه المزيد من عونه على ذكره وشكره وحسن عبادته.

وقد أوصى النبي ﷺ بذلك فقال لمعاذ: «**يَا مُعَاذُ وَاللَّهِ إِنِّي لَأُحِبُّكَ، وَاللَّهِ إِنِّي لَأُحِبُّكَ، فَقَالَ: أُوصِيكَ يَا مُعَاذُ لَا تَدَعَنَّ فِي دُبُرِ كُلِّ صَلَاةٍ تَقُولُ اللَّهُمَّ أَعِنِّي عَلَى ذِكْرِكَ وَشُكْرِكَ وَحُسْنِ عِبَادَتِكَ**»(١)

● ودومًا فأهل الفضل يسألون ربهم مزيدًا من التوفيق للشكر والعبادة والعمل الصالح.

قال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ إِنِّى تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّى مِنَ

(١) صحيح: أخرجه أبو داود (٢/ ١٨٠) والنسائي (٣/ ٥٣) وأحمد (٥/ ٢٤٥) وغيرهم.

ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٥﴾﴾ [الأحقاف: الآية ١٥] .

● ومنهم سليمان عليه السلام، قال تعالى في شأنه: ﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩﴾﴾ [النمل: الآية ١٩].

فنسأل الله عز وجل أن يُلهمنا شكره، وأن يعيننا على العمل الصالح، وأن يصلح لنا في ذرياتنا وأزواجنا.

وكان عليه السلام يأكل من عمل يده

وهذا من أطيب الكسب وأفضله.

● قال النبي ﷺ: «**مَا أَكَلَ أَحَدٌ طَعَامًا قَطُّ خَيْرًا مِنْ أَنْ يَأْكُلَ مِنْ عَمَلِ يَدِهِ، وَإِنَّ نَبِيَّ اللَّهِ دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَام كَانَ يَأْكُلُ مِنْ عَمَلِ يَدِهِ**»[١] أخرجه البخاري من حديث المقدام رضي الله عنه مرفوعًا.

وفي الصحيح أيضًا من حديث أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: «**خُفِّفَ عَلَى دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَام الْقُرْآنُ...**» فذكر الحديث، وفيه: «**وَلَا يَأْكُلُ إِلَّا مِنْ عَمَلِ يَدِهِ**»[٢].

هذا مع أنه عليه السلام كان خليفةً في الأرض، إلا إنه كان يأكل من عمل يده، قال تعالى: ﴿وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ أَنِ ٱعْمَلْ سَـٰبِغَـٰتٍ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ ۖ وَٱعْمَلُوا۟ صَـٰلِحًا ۖ﴾ [سبأ: ١١]

(١) البخاري (٢٢٠٧).

(٢) صحيح، وقد تقدم.

فقد كان عليه السلام يعمل دروعًا سابغات واسعة طويلة تقي من يلبسها سهام العدو ونبله[١]، وتحفظه بإذن الله من ضربات السيوف.

وتعلم داود عليه السلام هذه الصنعة بتعليم الله له كما قال تعالى: ﴿وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ﴾ [البقرة: الآية ٢٥١]، وكما قال تعالى: ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ ﴿٨٠﴾﴾ [الأنبياء: الآية ٨٠].

وقد امتنَّ الله عليه بمعجزةٍ لم يؤتها غيره من الأنبياء عليهم السلام ألا وهي إلانة الحديد في يده يشكِّله كيف يشاء، ويكيفه ويوجهه حيث يُريد، لا يحتاج إلى مطرقةٍ، ولا يحتاج إلى نار.

وعلَّمه الله دقة الصنعة فقال له: ﴿وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ﴾ [سبأ: الآية ١١] أي اجعل المسمار على قدر الثقب، فلا

(١) ونحوها القمصان الواقية التي يرتديها الرؤساء لوقايتهم طلقات الرصاص.

تجعل المسمار أغلظ من الثُّقب فيفصم الحديد عن طرق المسمار فيه، ولا تجعل الثقب أوسع من المسمار فلا يؤدي المسمار الغرض الذي من أجله صنع، بل اجعل قطر المسمار مماثلًا لقطر الثُّقب الذي سيُوضع فيه المسمار أو أقل قليلًا جدًّا بالقدر الذي يسمح بدخول المسمار في الثقب، وهذا بلا شك من إتقان العمل.

الحاصل: أن نبي الله داود عليه السلام كان يعمل بيده وكان يتقن العمل وهكذا الأنبياء عليهم الصلاة والسلام والصالحون

فمنهم من كان يرعى الغنم، بل كل نبيٍّ قد رعى الغنم، قال عليه الصلاة والسلام: **«مَا بَعَثَ اللَّهُ نَبِيًّا إِلَّا رَعَى الْغَنَمَ» فَقَالَ: أَصْحَابُهُ وَأَنْتَ؟ فَقَالَ: «نَعَمْ، كُنْتُ أَرْعَاهَا عَلَى قَرَارِيطَ لِأَهْلِ مَكَّةَ»**[1].

● ومنهم من كان نجارًا كنوح وزكريا عليهما

(١) البخاري (حديث ٢٢٦٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعًا.

السلام، قال نبينا محمد ﷺ: «**كَانَ زَكَرِيَّاءُ نَجَّارًا**»[١].

● وقال الله سبحانه وتعالى لنوح عليه السلام: ﴿وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا﴾ [هُود: الآية ٣٧].

● وكلٌّ كان يبيع ويشتري، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِ﴾ [الفُرقان: الآية ٢٠].

● ومنهم من كان يداوي المرضى كعيسى عليه السلام.

● ونبي الله داود عليه السلام لم تشغله الخلافة عن الأكل من عمل يده.

● وأصحاب النبي ﷺ منهم من كان يحمل على ظهره[٢] كي يحصل على مالٍ يتصدق به.

(١) أخرجه مسلم (حديث ٢٣٧٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ.

(٢) أخرج البخاري (حديث ١٤١٥) ومسلم (حديث ١٠١٨) من حديث أبي مسعودٍ قَالَ: أُمِرْنَا بِالصَّدَقَةِ، قَالَ: كُنَّا نُحَامِلُ قَالَ فَتَصَدَّقَ أَبُو عَقِيلٍ بِنِصْفِ صَاعٍ، قَالَ وَجَاءَ إِنْسَانٌ بِشَيْءٍ أَكْثَرَ مِنْهُ=

● ولا شك ولا ارتياب في أن الآكل من عمل يده، المتصدق المحسن خيرٌ من الذي يسأل الناس ويمدُّ يَدَهُ إليهم إن شاءوا أعطوه وإن شاءوا منعوه .

● ففي الحديث عن رسول ﷺ أنه قال: «**وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَأَنْ يَأْخُذَ أَحَدُكُمْ حَبْلَهُ فَيَحْتَطِبَ عَلَى ظَهْرِهِ خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَنْ يَأْتِيَ رَجُلًا فَيَسْأَلَهُ أَعْطَاهُ أَوْ مَنَعَهُ**»[١] .

وفي رواية: «**لَأَنْ يَأْخُذَ أَحَدُكُمْ حَبْلَهُ فَيَأْتِيَ بِحُزْمَةِ الْحَطَبِ عَلَى ظَهْرِهِ فَيَبِيعَهَا فَيَكُفَّ اللَّهُ بِهَا وَجْهَهُ، خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَنْ يَسْأَلَ النَّاسَ أَعْطَوْهُ أَوْ مَنَعُوهُ**»[٢] .

= فَقَالَ الْمُنَافِقُونَ: إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنْ صَدَقَةِ هَذَا، وَمَا فَعَلَ هَذَا الآخَرُ إِلَّا رِيَاءً، فَنَزَلَتْ ﴿ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ﴾ [التوبة: الآية ٧٩].

(١) البخاري (حديث ١٤٧٠) ومسلم (حديث ١٠٤٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعًا.

(٢) البخاري (حديث ١٤٧١) من حديث الزبير بن العوام رضي الله عنه مرفوعًا.

وفي صحيح مسلم [١] من طريق حمزة بن عبد الله (وهو ابن عمر) عن أبيه أن النبي ﷺ قال: «**لَا تَزَالُ الْمَسْأَلَةُ بِأَحَدِكُمْ حَتَّى يَلْقَى اللَّهَ وَلَيْسَ فِي وَجْهِهِ مُزْعَةُ لَحْمٍ**».

وفي صحيح مسلم [٢] من حديث قَبِيصَةَ بْنِ مُخَارِقٍ الْهِلَالِيِّ، قَالَ: تَحَمَّلْتُ حَمَالَةً [٣] فَأَتَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَسْأَلُهُ فِيهَا فَقَالَ: «**أَقِمْ حَتَّى تَأْتِيَنَا الصَّدَقَةُ فَنَأْمُرَ لَكَ بِهَا**» قَالَ: ثُمَّ قَالَ: «**يَا قَبِيصَةُ، إِنَّ الْمَسْأَلَةَ لَا تَحِلُّ إِلَّا لِأَحَدِ ثَلَاثَةٍ: رَجُلٍ تَحَمَّلَ حَمَالَةً فَحَلَّتْ لَهُ الْمَسْأَلَةُ حَتَّى يُصِيبَهَا ثُمَّ يُمْسِكُ** [٤]**، وَرَجُلٌ أَصَابَتْهُ جَائِحَةٌ** [٥] **اجْتَاحَتْ**

(١) مسلم (حديث ١٠٤٠).

(٢) مسلم (حديث ١٠٤٤).

(٣) الحمالة: هي المال الذي يتحمله الإنسان، أي يستدينه ويغرمه لإصلاح ذات البين.

(٤) أي: حتى يحصل على القدر الذي استدانه وتحمله ثم يمتنع من السؤال.

(٥) الجائحة: الآفة أو المصيبة التي اجتاحت ماله.

مَالَهُ فَحَلَّتْ لَهُ الْمَسْأَلَةُ حَتَّى يُصِيبَ قِوَامًا مِنْ عَيْشٍ[١] - أَوْ قَالَ سِدَادًا مِنْ عَيْشٍ - وَرَجُلٌ أَصَابَتْهُ فَاقَةٌ[٢] حَتَّى يَقُومَ ثَلَاثَةٌ مِنْ ذَوِي الْحِجَا[٣] مِنْ قَوْمِهِ: لَقَدْ أَصَابَتْ فُلَانًا فَاقَةٌ، فَحَلَّتْ لَهُ الْمَسْأَلَةُ حَتَّى يُصِيبَ قِوَامًا مِنْ عَيْشٍ - أَوْ قَالَ سِدَادًا مِنْ عَيْشٍ - فَمَا سِوَاهُنَّ مِنَ الْمَسْأَلَةِ يَا قَبِيصَةُ سُحْتًا يَأْكُلُهَا صَاحِبُهَا سُحْتًا»[٤].

هذا، وقد قال القرطبي رحمه الله في تفسير قوله تعالى: ﴿وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ﴾ [سبإ: الآية ١٠]: في هذه الآية دليل على تعلم أهل الفضل الصنائع، وأن التحرّف بها لا ينقص من مناصبهم، بل ذلك زيادة في فضلهم وفضائلهم؛ إذ يحصل لهم التواضع في أنفسهم والاستغناء عن غيرهم، وكسب الحلال الخلي عن

---

(١) ما تسد به الحاجة.

(٢) فقر وضرورة بعد غنى.

(٣) الحجا: العقل.

(٤) السحت: الحرام.

الامتنان. وفي الصحيح عن النبي ﷺ قال: «**إِنَّ خَيْرَ مَا أَكَلَ المَرْءُ مِن عَمَلِ يَدِهِ، وَإِنَّ نَبِيَّ الله دَاودَ كَانَ يَأْكُلُ مِن عَمَلِ يَدِهِ**».



آياتٌ من سورة «ص» فيها ذكر هذا النبي الكريم وبعض أخباره

قال تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿١٦﴾ ٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٧﴾ إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾ وَٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةً ۖ كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٩﴾ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ ﴿٢٠﴾ وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا۟ ٱلْمِحْرَابَ ﴿٢١﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَىٰ دَاوُۥدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ ۖ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ ۖ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَٱحْكُم بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَٱهْدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ ﴿٢٢﴾ إِنَّ هَٰذَآ أَخِى لَهُۥ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِىَ نَعْجَةٌ وَٰحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِى فِى ٱلْخِطَابِ ﴿٢٣﴾ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ ۖ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِى بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ ۗ وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ۩ ﴿٢٤﴾ فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ ۖ وَإِنَّ لَهُۥ

عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٢٥﴾ يَـٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَـٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٦﴾ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَـٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿٢٧﴾ أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾ كِتَـٰبٌ أَنزَلْنَـٰهُ إِلَيْكَ مُبَـٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَـٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴿٢٩﴾﴾ [ص: الآيات ١٦-٢٩].

● يُذكِّر الله سبحانه وتعالى نبيه محمدًا ﷺ بما ينبغي أن يفعله مع المشركين المعاندين المكذبين المستهزئين، منكري البعث والثواب والعقاب، فذكر الله سبحانه وتعالى مقولة الكافرين وأوضح لنبيه ﷺ الطريق الذي يسلكه مع هؤلاء والسبيل الذي يرتاده لمواجهتهم. قال تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿١٦﴾﴾ [ص: الآية ١٦].

هكذا سأل الكفار ربهم عزَّ وجل، سألوا سؤال

المستبعد المنكر المستهزئ فقالوا: ﴿رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْحِسَابِ﴾ [ص: الآية ١٦] أي يا رب عجل لنا في هذه الدنيا ما كتبته علينا من العذاب قبل يوم القيامة!

قالوا ذلك على سبيل التحدي، كما قد قالوا: ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [يونس: الآية ٤٨] وكما قالوا ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْفَتْحُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [السّجدَة: الآية ٢٨] وكما قالوا ﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأنفَال: الآية ٣٢].

- وكما قالوا: ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [الأعرَاف: الآية ٧٠].
- فهكذا كانوا يستعجلون العذاب، قال تعالى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَلَوْلَآ أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَآءَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٣﴾﴾ [العَنكبوت: الآية ٥٣].
- وقال تعالى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ﴾ [الرّعد: الآية ٦].

● وهذا ضرب من ضروب الجهل ونوع من أنواعه.

نوع من الجهل أن يسأل الرجل ربه أن يعجل له نزول العذاب، أو أن يعذبه أصلًا؛ ولذا فإنا نهينا عن تمني نزول العذاب، وفي صحيح مسلم[١] عَنْ أَنَسٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَادَ رَجُلًا مِنَ الْمُسْلِمِينَ قَدْ خَفَتَ، فَصَارَ مِثْلَ الْفَرْخِ فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**هَلْ كُنْتَ تَدْعُو بِشَيْءٍ أَوْ تَسْأَلُهُ إِيَّاهُ؟**» قَالَ: نَعَمْ، كُنْتُ أَقُولُ: اللَّهُمَّ مَا كُنْتَ مُعَاقِبِي بِهِ فِي الْآخِرَةِ فَعَجِّلْهُ لِي فِي الدُّنْيَا فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**سُبْحَانَ اللَّهِ، لَا تُطِيقُهُ - أَوْ لَا تَسْتَطِيعُهُ - أَفَلَا قُلْتَ: اللَّهُمَّ** ﴿ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْأَخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [البقرة: الآية ٢٠١]» قَالَ فَدَعَا اللَّهَ لَهُ، فَشَفَاهُ.

وفي رواية عند مسلم: «**لَا طَاقَةَ لَكَ بِعَذَابِ اللَّهِ**».

فما المسنون وما المشروع إذن؟!

المسنون والمشروع سؤال الله العفو والعافية في

(١) أخرجه مسلم (حديث ٢٦٨٨).

الدنيا والآخرة.

المسنون قول: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [البقرة: الآية ٢٠١].

● فكم من شخصٍ سعيد في الدنيا والآخرة.

● قال تعالى في شأن عيسى عليه السلام ﴿وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ﴾ [آل عمران: الآية ٤٥].

● وموسى عليه السلام ألقى الله عليه محبةً منه، ومع ذلك فهو في الآخرة من المقربين!!

● وسليمان عليه السلام كان نبيًّا ملكًا سُخِّرت له الجنُّ والإنس والطيرُ ومع ذلك إن له عند الله ﴿لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٢٥﴾﴾ [ص: الآية ٢٥].

● وإبراهيم عليه السلام يسأل ربه تبارك وتعالى أن يجعل له لسان صدق في الآخرين، أي ثناءً حسنًا بعد الموت.

فمن ثَمَّ لا يشرع سؤال العذاب، **بل يُسأل الأجر والثواب، والعافية والمعافاة في الدنيا والآخرة.**

• ولنرجع إلى التأويل:

• بمَ أوصى الله نبيه محمدًا ﷺ أن يفعله أمام جحود الجاحدين وعناد المعاندين؟!

• لقد أوصاه الله عز وجل في هذا الموطن بالصبر ﴿ٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ كما قد أوصاه بالصبر في مواطن أخر.

قال تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا﴾ [المزمل: الآية ١٠].

وقال سبحانه: ﴿وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ [الطور: الآية ٤٨].

إلى غير ذلك من الآيات.

• ثم قال الله سبحانه وتعالى لنبيه محمد ﷺ: ﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ﴾، فما وجه ذِكر نبي الله داود عليه السلام في هذا المقام؟ ولماذا خُصَّ عليه السلام من بين سائر الأنبياء عليهم السلام بالذكر هاهنا؟!

● **وابتداءً - وقبل الجواب - نُذَكِّر بما وصف الله به نبيه داود** عليه السلام :

● **لقد وصفه الله سبحانه وتعالى بأنه عبدٌ**، فقال: ﴿وَٱذۡكُرۡ عَبۡدَنَا دَاوُۥدَ﴾ [ص: الآية ١٧] نعم هو عبدٌ عليه السلام، وكذا **الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم كلهم لله عبيد.**

● قال تعالى في شأن نبينا محمدٍ ﷺ: ﴿فَأَوۡحَىٰٓ إِلَىٰ عَبۡدِهِۦ مَآ أَوۡحَىٰ ﴿١٠﴾﴾ [النجم: الآية ١٠].

● وقال ﴿سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسۡرَىٰ بِعَبۡدِهِۦ لَيۡلٗا﴾ [الإسراء: الآية ١].

● وقال سبحانه: ﴿وَإِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّمَّا نَزَّلۡنَا عَلَىٰ عَبۡدِنَا﴾ ... [البقرة: الآية ٢٣].

وثم أدلة أُخر في هذا الصدد.

● وقال سبحانه وتعالى في شأن عيسى عليه السلام: ﴿إِنۡ هُوَ إِلَّا عَبۡدٌ أَنۡعَمۡنَا عَلَيۡهِ﴾ [الزخرف: الآية ٥٩].

● وقال عيسى عليه السلام عن نفسه أول ما تكلم في المهد

﴿إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ﴾ [مريم: الآية ٣٠] وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴿١٧٣﴾﴾ [الصافات: الآيات ١٧١- ١٧٣].

● **وهكذا الخلق كلهم أجمعون، والملائكة المقربون**، قال تعالى في شأن الملائكة ﴿بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ﴾ [الأنبياء: الآية ٢٦]، وقال تعالى: ﴿لَّن يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ﴾ [النّساء: الآية ١٧٢]، قال تعالى: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾﴾ [مريم: ٩٣].

● فالكل عبيدٌ لله، ولكن ثم إشارة بقوله تعالى ﴿وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ﴾ [ص: ١٧] إلى فضل داود عليه السلام ألا وهي أن الإضافة **إضافة تشريف** في قوله ﴿عَبْدَنَا﴾ فشرفٌ لداود عليه السلام أن ينسب إلى طاعة الله وعبودية الله.

● **ولإضافة التشريف أدلة أُخر** كقوله تعالى ﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ﴾ [الجن: الآية ١٨] فمع أن كل شيءٍ لله لكن

أضيفت المساجد لله لتشريفها، وكذا قول صالح عليه السلام ﴿هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ﴾ [الأعراف: الآية ٧٣] فذكر أنها لله لتشريفها، وكذا في شأن عيسى عليه السلام «روح الله».

● **ولنرجع إلى إجابة السؤال الخاص بذكر داود عليه السلام دون غيره، فنقول**: إنه عليه السلام ذُكر دون غيره من الأنبياء في هذا المقام ﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ﴾، والله تعالى أعلم، لأمر يتناسب مع هذا المقام ألا وهو حسن قيامه عليه السلام، أعني حسن قيامه في صلاته من الليل، وحسن عبادته عمومًا، فكأن المعنى: اصبر على ما يقولون، وصلِ صلاة كصلاة داود عليه السلام، وتعبَّد ربك كما يتعبد فقد كان صابرًا على العبادة قويًا في الطاعة، قال رسول الله ﷺ: «**أحب القيام إلى الله قيام داود عليه السلام، وأحب الصيام إلى الله صيام داود عليه السلام**»[1].

فعليه يكون المعنى: اصبر على ما يقولون وصلِ

(١) صحيح، وقد تقدم.

واجتهد في عبادتك . . . وهذا يتمشى مع سائر الوصايا في كتاب الله عند الشدائد.

فمن الوصايا التي كثيرًا ما نُوصَى بها لمواجهة الشدائد والصعاب الوصية بالصبر والصلاة ، فهذا من خير ما تواجه به الشدائد والصعاب.

● قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٣﴾﴾ [البقرة: الآية ١٥٣].

● وقال سبحانه: ﴿وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ﴿٤٥﴾﴾ [البقرة: الآية ٤٥].

● وقال تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ ﴿٣٩﴾﴾ [ق: الآية ٣٩] والمراد صلاتي الفجر والعصر.

● وقال تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ۖ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٤٨﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَٰرَ ٱلنُّجُومِ ﴿٤٩﴾﴾ [الطُّور: الآيتان ٤٨، ٤٩].

●فكلها تتمشى مع ﴿ٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ﴾ [ص: الآية ١٧] أي اذكر صلاته وعبادته وخشيته لله عز وجل، وحسن تلاوته وترتيله، وقوته في العبادة واجتهاده فيها.

●قال قتادة رحمه الله[١]: أُعطي[٢] قوةً في العبادة وفقهًا في الإسلام.

●وهذا مزيدٌ من التذكير بنبي الله داود عليه السلام في هذه الآية والآيات التي بعدها، إذ لنا فيه أسوةٌ عليه السلام فقد قال تعالى في شأنه مع طائفة من الأنبياء عليهم السلام: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْۗ﴾ [الأنعام: الآية ٩٠].

●أما قوله تعالى عن هذا النبي الكريم: ﴿ذَا ٱلْأَيْدِۖ﴾ فالأيدي هنا للعلماء فيها وجوه، **منها: القوة والشدة** فقد كان عليه السلام قويًّا شجاعًا شديدًا في القتال، قويًّا نشيطًا في طاعة الله عز وجل أيضًا.

---

(١) الطبري (٢٩٧٩٣).

(٢) يعني نبي الله داود عليه السلام

● **ووجه آخر في تفسير (الأيدي) ها هنا أن المراد بها النعم ووجوه الإفضال** ، فقد أنعم الله عليه بنعم عظيمة جدًّا، وتفضل عليه بوجوه من الإفضال غزيرةٌ جدًّا، وأما هو فقد كان محسنًا إلى خلق الله عز وجل رحيمًا بهم عليه الصلاة والسلام.

● أما قوله تعالى ﴿إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ [ص: الآية ٣٠] فالأواب الرّجاع، من قولهم (آب) إذا رجع، (وآيبون) راجعون.

● وهي محتملة لوجوهٍ ها هنا:

● منها: أنه رجّاعٌ إلى الله إذا صدر منه شيءٌ لا يليق به، ولا يليق بمقام النبوة السامي الكريم، فأوابٌ تحمل معنى توابٍ ومستغفرٍ ورجاعٍ.

● وتحتمل أيضًا: أنه مكثرٌ من التسبيح، فأواب رجاع بالتسبيح، أي يسبح تسبيحًا بعد تسبيح، ولا أعلم خلافًا في أن داودعليه السلام كان مُكثرًا من التسبيح عليه الصلاة والسلام.

● قال تعالى: ﴿يَٰجِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ﴾ [سبأ: الآية ١٠].

● وقال تعالى: ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ [الأنبياء: الآية ٧٩].

● ومن الوجوه التي أوردها العلماء أيضًا في (أواب): أنه كثير الصلاة.

ثم على القول بأن (أواب): مستغفر، وكثير الاستغفار، فقد يطرح سؤال، ألا وهو: هل كان داود عليه السلام يُذنب حتى يوصف بأنه كثير الرجوع إلى الله وكثير الاستغفار؟؟!!

وجوابه أن الأنبياء أفضل الخلق وأعلم الخلق بالله وأتقى الخلق لله عز وجل، وكلما كان الشخص قريبًا من الله عز وجل كلما كان أشد خشيةً وأكثر استغفارًا، ورأى صغار ذنوبه كأنها جبال يخشى أن تتساقط عليه، أما الفجار فليسوا كذلك، بل يرون عظائم الذنوب كذبابٍ حطَّ على أنوفهم فطردوه فطار.

ففي الأثر [١] عَنِ الْحَارِثِ بْنِ سُوَيْدٍ حَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّهِ ابْنُ مَسْعُودٍ حَدِيثَيْنِ أَحَدُهُمَا عَنِ النَّبِيِّ ﷺ وَالْآخَرُ عَنْ نَفْسِهِ، قَالَ: إِنَّ الْمُؤْمِنَ يَرَى ذُنُوبَهُ كَأَنَّهُ قَاعِدٌ تَحْتَ جَبَلٍ يَخَافُ أَنْ يَقَعَ عَلَيْهِ، وَإِنَّ الْفَاجِرَ يَرَى ذُنُوبَهُ كَذُبَابٍ مَرَّ عَلَى أَنْفِهِ فَقَالَ بِهِ هَكَذَا - قَالَ أَبُو شِهَابٍ بِيَدِهِ فَوْقَ أَنْفِهِ - ثُمَّ قَالَ: لَلَّهُ أَفْرَحُ بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ مِنْ رَجُلٍ . . . فذكر الحديث.

والذي يظهر أن هذا الجزء الذي ذكرناه موقوف على ابن مسعود رضي الله عنه والله أعلم.

● وعَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه قَالَ: إِنَّكُمْ لَتَعْمَلُونَ أَعْمَالًا هِيَ أَدَقُّ فِي أَعْيُنِكُمْ مِنَ الشَّعرِ، إِنْ كُنَّا لَنَعُدُّهَا عَلَى عَهْدِ النَّبِيِّ ﷺ مِنَ الْمُوبِقَاتِ.

قَالَ أَبو عَبْد اللَّهِ (البخاري): يَعْنِي بِذَلِكَ الْمُهْلِكَاتِ [٢].

---

(١) أخرجه البخاري (٦٣٠٨).

(٢) البخاري (حديث ٦٤٩٢).

● وها هو الخليل إبراهيم عليه السلام يعتذر يوم القيامة عن الشفاعة ويذكر ثلاث كذباتٍ كذبهن[١]، وقد ذُكرت هذه الكذبات في روايةٍ لمسلم من حديث أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «**لَمْ يَكْذِبْ إِبْرَاهِيمُ النَّبِيُّ عَلَيْهِ السَّلَام قَطُّ إِلَّا ثَلَاثَ كَذَبَاتٍ ثِنْتَيْنِ فِي ذَاتِ اللَّهِ، قَوْلُهُ** ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ [الصافات: الآية ٨٩] **وَقَوْلُهُ** ﴿بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا﴾ [الأنبياء: الآية ٦٣] **وَوَاحِدَةٌ فِي شَأْنِ سَارَةَ...**» فذكر الحديث وفيه: «**فَإِنْ سَأَلَكِ فَأَخْبِرِيهِ أَنَّكِ أُخْتِي**»[٢].

● هذا، وثمَّ شيءٌ آخر ألا وهو أن الأنبياء عليهم السلام أشد الناس تواضعًا لله عز وجل، ثم إنهم يسنون لأممهم سنة الاستغفار، وفي الحديث عن رسول الله ﷺ: «**لَوْلَا**

(١) البخاري (حديث ٧٤٤٠) ومسلم (ص١٨٣) من حديث أنس رضي الله عنه مرفوعًا.

(٢) مسلم (حديث ٢٣٧١) وعقبه: فإنك أختي في الإسلام فإني لا أعلم في الأرض مسلمًا غيري وغيرك.

أَنَّكُمْ تُذْنِبُونَ لَخَلَقَ اللَّهُ خَلْقًا يُذْنِبُونَ يَغْفِرُ لَهُمْ»[١] أخرجه مسلم في صحيحه.

● وفي صحيح مسلم أيضًا من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ لَمْ تُذْنِبُوا لَذَهَبَ اللَّهُ بِكُمْ وَلَجَاءَ بِقَوْمٍ يُذْنِبُونَ فَيَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ فَيَغْفِرُ لَهُمْ**»[٢].

● وقد قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُوا۟ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ﴾ [فَاطِر: الآية ٤٥] الآية.

هذا، والله تعالى أعلم بالصواب.

ثمَّ بين الله سبحانه وتعالى بعض مننه ونعمه على نبيه داود عليه السلام، فمن ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ

(١) أخرجه مسلم (حديث ٢٧٤٨) من حديث أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه مرفوعًا.

(٢) أخرجه مسلم (حديث ٢٧٤٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعًا.

﴿يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ ۝١٨﴾ [ص: الآية ١٨]، فسبحان من أنطق الحصى وجعل الحجارة تتكلم بالتسبيح وتُرجع مع هذا النبي الكريم!!!

ولكن وما ذلك على الله بعزيز، فكل شيءٍ مسخرٌ لله عز وجل، شمسٌ مسخرةٌ.

- وقمرٌ مسخرٌ ونجوم مسخرات!!
- سحابٌ مسخرٌ، رياحٌ مسخرةٌ، وبحرٌ مسخرٌ!!
- إنسٌ مسخرون! جنٌّ كذلك مسخرون! ودوابٌ مسخرةٌ!!
- ظلالٌ تتفيأ عن اليمين والشمائل سجدًا لله وهم داخرون!!
- رعدٌ يسبح بحمد ربه، والملائكة كذلك يسبحون وهم من خشيته مشفقون، لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون.
- صواعقٌ يرسلها الله على مايشاء!!

- قطرٌ وغيثٌ يصيب الله به من يشاء ويصرفه عمن يشاء!!
- نارٌ تحرق بإذن ربها، ويجعلها الله على ما يشاء بردًا وسلامًا!!
- أرضٌ تبلع ماءَها بإذن الله وتمسكه بإذن الله، وسماء تأتمر بأمر الله ﴿يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي﴾ [هود: الآية ٤٤]!!
- نساء تلد الذكور، وأخريات يُرزقن الإناث، وأخرى ترزق الذكور والإناث، وغيرهن عقيمات، وكل ذلك بإذن الله.
- طيورٌ في السماء تُسبِّح!! وحوشٌ في الغابات تُسبِّح!!
- حيتان في البحار تُسبِّح!! دوابٌ في الصخور تُسبِّح!!
- الكل يُسبح، والكل يحمد، والكل يوحِّد!!

﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [الإسراء: الآية ٤٤].

● ولنرجع إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾﴾.

● لقد سخر الله عز وجل الجبال بحصاها ورملها وحجرها وكلّ ما فيها تسبح مع داود عليه السلام!!

● إنها تسبح معه، تسبح معه بالعشي: من العصر إلى الليل، والإشراق: وذلك بالغداة عند ابيضاض الشمس عند الضحى!!

● وأخرج الطبري من طريقين عن ابن عباس رضي الله عنهما ما حاصله أنه كان يتأول ﴿يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِشْرَاقِ﴾ أنها صلاة الضحى.

● **وهذا شيءٌ من فضل صلاة الضحى** لعلَّ مُدكرًا أن يدَّكر، ومتعظًا يتعظ، وعاملًا يعمل!

● من ذلك ما أخرجه مسلم في صحيحه من حديث

أَبِي ذَرٍّ رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «**يُصْبِحُ عَلَى كُلِّ سُلَامَى مِنْ أَحَدِكُمْ صَدَقَةٌ، فَكُلُّ تَسْبِيحَةٍ صَدَقَةٌ، وَكُلُّ تَحْمِيدَةٍ صَدَقَةٌ، وَكُلُّ تَهْلِيلَةٍ صَدَقَةٌ، وَكُلُّ تَكْبِيرَةٍ صَدَقَةٌ، وَأَمْرٌ بِالْمَعْرُوفِ صَدَقَةٌ، وَنَهْيٌ عَنِ الْمُنْكَرِ صَدَقَةٌ، وَيُجْزِئُ مِنْ ذَلِكَ رَكْعَتَانِ يَرْكَعُهُمَا مِنَ الضُّحَى**»[١].

● وما أخرجه أبو داود[٢] من حديث بُرَيْدَةَ رضي الله عنه قال: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «**فِي الْإِنْسَانِ ثَلَاثُ مِائَةٍ وَسِتُّونَ مَفْصِلًا، فَعَلَيْهِ أَنْ يَتَصَدَّقَ عَنْ كُلِّ مَفْصِلٍ مِنْهُ بِصَدَقَةٍ**» قَالُوا: وَمَنْ يُطِيقُ ذَلِكَ يَا نَبِيَّ اللَّهِ؟ قَالَ: «**النُّخَاعَةُ فِي الْمَسْجِدِ تَدْفِنُهَا، وَالشَّيْءُ تُنَحِّيهِ عَنِ الطَّرِيقِ، فَإِنْ لَمْ تَجِدْ فَرَكْعَتَا الضُّحَى تُجْزِئُكَ**».

● ومن ذلك: ما أخرجه أحمد من حديث نُعَيْمِ بْنِ

(١) أخرجه مسلم (٧٢٠).

(٢) أخرجه أبو داود (٥٢٤٢) وأحمد (٥/ ٣٥٤ و٣٥٩) وابن حبان «موارد الظمآن» (٦٣٣ و٨١١) والطحاوي «مشكل الآثار» (١/ ٢٥).

هَمَّارٍ الْغَطَفَانِيِّ أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «**قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: يَا ابْنَ آدَمَ، لَا تَعْجِزْ عَنْ أَرْبَعِ رَكَعَاتٍ مِنْ أَوَّلِ النَّهَارِ؛ أَكْفِكَ آخِرَهُ**»[١].

● وفي صحيح مسلم[٢] من حديث زَيْدِ ابْنِ أَرْقَمَ قَالَ: خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَى أَهْلِ قُبَاءَ وَهُمْ يُصَلُّونَ فَقَالَ: «**صَلَاةُ الْأَوَّابِينَ إِذَا رَمِضَتِ الْفِصَالُ**».

وقد جاء الحث على صلاة الضحى في عدة أحاديث منها:

● ما أخرجه البخاري ومسلم[٣] من حديث أَبِي

---

(١) أخرجه أحمد «المسند» (٥/ ٢٨٦) والدارمي (١/ ٣٣٨) والبيهقي (٣/ ٤٨) وابن حبان «موارد» (٦٣٤) وهو حديث حسن.

(٢) أخرجه مسلم (٧٤٨) من حديث زيد بن أرقم رضي الله عنه مرفوعًا، وفي إسناده القاسم بن عوف الشيباني، وقد تكلم في القاسم بعض أهل العلم.

(٣) أخرجه البخاري (حديث ١١٧٨) ومسلم (حديث ٧٢١).

هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: أَوْصَانِي خَلِيلِي بِثَلَاثٍ لَا أَدَعُهُنَّ حَتَّى أَمُوتَ: صَوْمِ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ مِنْ كُلِّ شَهْرٍ، وَصَلَاةِ الضُّحَى، وَنَوْمٍ عَلَى وِتْرٍ.

●وأخرج مسلم من حديث[1] أَبِي الدَّرْدَاءِ رضي الله عنه قَالَ: أَوْصَانِي حَبِيبِي ﷺ بِثَلَاثٍ لَنْ أَدَعَهُنَّ مَا عِشْتُ: بِصِيَامِ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ مِنْ كُلِّ شَهْرٍ، وَصَلَاةِ الضُّحَى، وَبِأَنْ لَا أَنَامَ حَتَّى أُوتِرَ.

●وأخرج أحمد[2] رحمه الله من حديث أَبِي ذَرٍّ رضي الله عنه قَالَ: أَوْصَانِي حِبِّي بِثَلَاثٍ لَا أَدَعُهُنَّ إِنْ شَاءَ اللَّهُ أَبَدًا: أَوْصَانِي بِصَلَاةِ الضُّحَى، وَبِالْوِتْرِ قَبْلَ النَّوْمِ، وَبِصِيَامِ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ مِنْ كُلِّ شَهْرٍ.

لفتةٌ:

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله تعالى في شرحه

(١) أخرجه مسلم (حديث ٧٢٢).

(٢) أخرجه أحمد (٥/ ١٧٣) وهو صحيح وله شواهد أيضًا.

لحديث حنين الجذع لرسول الله ﷺ **(في فتح الباري شرح صحيح البخاري)**: وقد نقل ابن أبي حاتم **في (مناقب الشافعي)** عن أبيه عن عمرو بن سواد عن الشافعي قال: **ما أعطى الله نبيًّا ما أعطى محمدًا، فقلت: أعطى عيسى إحياء الموتى!.**

قال: أعطى محمدًا حنين الجذع.

● **قلت (مصطفى)**: وصدق الإمام الشافعي فيما قال، فجذعٌ يئن ويُسمع له صوت كصوت العشار أقوى من ميت يتكلم. وقريبٌ من هذا القول قول من قال: ما أعطى الله نبيًّا معجزة إلا وأعطى رسولنا ﷺ معجزة من جنسها.

● فإن كانت الجبال سبحت مع داود وكذلك الطير، فقد كان بمكة حجر سلَّم على النبي ﷺ، كما في صحيح مسلم؛ إذ النبي ﷺ قال: «**إِنِّي لَأَعْرِفُ حَجَرًا بِمَكَّةَ كَانَ يُسَلِّمُ عَلَيَّ**»، وكذلك كان يُسمع للطعام تسبيحٌ وهو يؤكل على عهد رسول الله ﷺ، فعند

البخاري[١] من حديث عَبْدِ اللَّهِ بن مسعود رضي الله عنه قَالَ: كُنَّا نَعُدُّ الْآيَاتِ بَرَكَةً وَأَنْتُمْ تَعُدُّونَهَا تَخْوِيفًا!! كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي سَفَرٍ فَقَلَّ الْمَاءُ فَقَالَ: «**اطْلُبُوا فَضْلَةً مِنْ مَاءٍ**» فَجَاءُوا بِإِنَاءٍ فِيهِ مَاءٌ قَلِيلٌ، فَأَدْخَلَ يَدَهُ فِي الْإِنَاءِ ثُمَّ قَالَ: «**حَيَّ عَلَى الطَّهُورِ الْمُبَارَكِ، وَالْبَرَكَةُ مِنَ اللَّهِ**» فَلَقَدْ رَأَيْتُ الْمَاءَ يَنْبُعُ مِنْ بَيْنِ أَصَابِعِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ!! وَلَقَدْ كُنَّا نَسْمَعُ تَسْبِيحَ الطَّعَامِ وَهُوَ يُؤْكَلُ!!.

● وإن كانت الريح سُخِّرت لسليمان عليه السلام، فقد سخر البراق لرسول الله ﷺ، وقد عُرج برسول الله ﷺ إلى سبع سموات!!

● وإن كان يعقوب عليه السلام قد قال ﴿إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ﴾ [يوسف: الآية ٩٤] فقد علم النبي ﷺ بموت النجاشي يوم أن مات، وأخبر النبي أصحابه أيضًا بقتل الثلاثة الذي قتلوا يوم مؤتة (زيد بن حارثة، وجعفر، وابن رواحة رضي الله عنهم).

---

(١) البخاري حديث (٣٥٧٩).

● وإن كان ربنا قد أجرى الشفاء على يد بعض أنبيائه كعيسى عليه السلام فقد مسح رسولنا ﷺ رجل عبد الله ابن عتيك لما كسرت فكأن لم يشتكها قط، وذلك فيما أخرجه البخاري[1] في قصة قتل أبي رافع اليهودي، ففيها: ... فوقعت في ليلة مقمرة فانكسرت ساقي... فذكر الحديث، وفيه: فقال رسول الله ﷺ: «**ابْسُطْ رِجْلَكَ**» فَبَسَطْتُ رِجْلِي فَمَسَحَهَا فَكَأَنَّهَا لَمْ أَشْتَكِهَا قَطُّ.

● وإن كان موسى عليه السلام ضرب الحجر بعصاه فانفجرت منه اثنتا عشرة عينًا فقد نبع الماء من بين أصابع النبي ﷺ.

والنظائر لذلك كثيرة جدًّا.

● وخالد بن الوليد ببركة اتباعه لرسول الله ﷺ شرب السم فلم يضره[2]، وقد أضاءت العصا لأسيد بن

(١) البخاري (حديث ٤٠٣٩).

(٢) انظر ذلك وما بعده إن شئت في كتابي «الصحيح المسند من =

حضير وعباد بن بشر، وسلمت الملائكة على عمران بن حصين، وتنزلت الملائكة على أسيد بن حضير وهو يقرأ القرآن.

● ولنرجع إلى الفسير وقصة نبي الله داود عليه السلام:

قال تعالى: ﴿وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٩﴾﴾ فنقول وبالله التوفيق: إن الله عز وجل وهب نبي الله داود عليه السلام صوتًا حسنًا في غايةٍ من الحُسن، جميلًا في غايةٍ من الجمال، فكان إذا سبَّح أجابته الجبال، واجتمعت إليه الطيور، كل معه مسبحٌ، وكل معه مُرجِعٌ في منظر عجيب، ومشهد مهيب!!

سكينةٌ تتنزل!! ملائكةٌ تحفُّ!! نبيٌّ كريمٌ يُرتِّل!! والرب مطلعٌ وشاهدٌ وبصيرٌ!!

● ولنذْكُر، ونُذكِّر ببعض الوارد في فضل حسن الصوت بالقرآن واستحباب ترتيله!!

= فضائل الصحابة».

● قال الله تبارك وتعالى ﴿وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا﴾ [المزمل: الآية ٤].

● وقال النبي ﷺ: «**زَيِّنُوا الْقُرْآنَ بِأَصْوَاتِكُمْ**»(١).

● وقال عليه الصلاة والسلام: «**مَا أَذِنَ اللَّهُ لِشَيْءٍ مَا أَذِنَ لِنَبِيٍّ حَسَنِ الصَّوْتِ بِالْقُرْآنِ يَجْهَرُ بِهِ**»(٢).

● وفي رواية: «**لَمْ يَأْذَنِ اللَّهُ لِشَيْءٍ مَا أَذِنَ لِنَّبِيِّ أَنْ يَتَغَنَّى بِالْقُرْآنِ**»(٣).

● وفي ثالثة: «**لَيْسَ مِنَّا مَنْ لَمْ يَتَغَنَّ بِالْقُرْآنِ**»(٤).

● وقال ﷺ: «**الْمَاهِرُ بِالْقُرْآنِ مَعَ السَّفَرَةِ الْكِرَامِ الْبَرَرَةِ ...**»(٥)

---

(١) صحيح لشواهده، وأخرجه أحمد (٤/ ٢٨٣) وغيره وله شواهد.

(٢) البخاري (حديث ٧٥٤٤).

(٣) البخاري (مع الفتح ٩/ ٦٨).

(٤) أبو داود (٣/ ١٥٥) وهو عند البخاري من حديث أبي هريرة مرفوعًا، وبه علة.

(٥) مسلم (مع النووي ٦/ ٨٤).

● وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ [البَقَرَة: الآية ١٢١].

● وقد أثنى رسول الله ﷺ على أبي موسى الأشعري لحسن صوته بالقرآن، فقال له رسول الله ﷺ: «**يَا أَبَا مُوسَى لَقَدْ أُوتِيتَ مِزْمَارًا مِنْ مَزَامِيرِ آلِ دَاوُدَ**»(١).

● وعند أحمد في المسند بسند حسن من طريق عَبْدِ اللَّهِ بْنِ بُرَيْدَةَ عَنْ أَبِيهِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ دَخَلَ الْمَسْجِدَ فَأَخَذَ بِيَدِي فَدَخَلْتُ مَعَهُ فَإِذَا رَجُلٌ يَقْرَأُ وَيُصَلِّي قَالَ: «**لَقَدْ أُوتِيَ هَذَا مِزْمَارًا مِنْ مَزَامِيرِ آلِ دَاوُدَ**» وَإِذَا هُوَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ قَيْسٍ أَبُو مُوسَى الْأَشْعَرِيُّ قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَأُخْبِرُهُ؟ قَالَ: فَأَخْبَرْتُهُ فَقَالَ: لَمْ تَزَلْ لِي صَدِيقًا(٢).

● وعند ابن حبان من طريق أبي سلمة عن أبي هريرة

---

(١) البخاري (حديث ٥٠٤٨).

(٢) أحمد في المسند (٥/ ٣٥٩).

رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ سمع قراءة أبي موسى الأشعري فقال: «**لَقَدْ أُوتِيَ هَذَا مِنْ مَزَامِيرِ آلِ دَاوُدَ**»[١].

قال أبو سلمة: وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول لأبي موسى وهو جالس في المجلس: يا أبا موسى ذكرنا ربنا فيقرأ عنده أبو موسى وهو جالس في المجلس ويتلاحن.

وهذا صحابي آخر أثنى عليه رسولنا ﷺ لدينه وحسن تلاوته بالقرآن، **إنه سالم مولى أبي حذيفة:**

● فعند ابن ماجه بسند[٢] رجاله ثقات من حديث عَائِشَةَ زَوْجِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَتْ: أَبْطَأْتُ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لَيْلَةً بَعْدَ الْعِشَاءِ ثُمَّ جِئْتُ فَقَالَ: «**أَيْنَ كُنْتِ؟**» **قُلْتُ**: كُنْتُ أَسْتَمِعُ قِرَاءَةَ رَجُلٍ مِنْ أَصْحَابِكَ، لَمْ أَسْمَعْ مِثْلَ قِرَاءَتِهِ وَصَوْتِهِ مِنْ أَحَدٍ!! قَالَتْ: فَقَامَ

---

(١) ابن حبان «موارد الظمآن» (٢٢٦٤)، وسند الفقرة الأولى صحيح، والثاني حسن لغيره.

(٢) ابن ماجه (١٣٣٨).

وَقُمْتُ مَعَهُ حَتَّى اسْتَمَعَ لَهُ، ثُمَّ الْتَفَتَ إِلَيَّ فَقَالَ: **«هَذَا سَالِمٌ مَوْلَى أَبِي حُذَيْفَةَ، الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي جَعَلَ فِي أُمَّتِي مِثْلَ هَذَا»**.

وكما قلنا فقد أوصى به النبي ﷺ ضمن من أوصى بهم[١] ففي الصحيحين من حديث عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو رضي الله عنهما: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: **«اسْتَقْرِئُوا الْقُرْآنَ مِنْ أَرْبَعَةٍ: مِنِ ابْنِ مَسْعُودٍ وَسَالِمٍ مَوْلَى أَبِي حُذَيْفَةَ وَأُبَيٍّ وَمُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ»**.

● وانظر إلى ما قاله عمر رضي الله عنه لأصحابه فيما أخرجه الحاكم بسند حسن[٢] إلى عمر رضي الله عنه أنه قال لأصحابه: تمنوا فقال بعضهم: أتمنى لو أن هذه الدار مملوءةً ذهبًا أُنفقُهُ في سبيل الله وأَتَصدق، وقال رجلٌ: أتمنى لو أنها مملوءة زبرجدًا وجواهرًا فأُنفقه في سبيل الله وأَتَصدق، ثم قال عمر: تمنوا، فقالوا: ما ندري يا أمير المؤمنين

(١) البخاري (حديث ٣٨٠٦) ومسلم (٢٤٦٤).

(٢) الحاكم في المستدرك (٣/٢٢٦).

فقال عمر: أتمنى لو أنها مملوءة رجالًا مثل أبي عبيدة ابن الجراح ومعاذ بن جبل وسالم مولى أبي حذيفة وحذيفة بن اليمان.

أما قوله تعالى ﴿كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ أي كل الطير له مطيعٌ ومعه مُسبح ومُرّجعٌ.

ومن نعم الله تعالى على داود عليه السلام أنه **قوَّي مُلكه** كما قال تعالى: ﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ﴾ أي قوَّيناه وذلك - على ما ذكره العلماء - **بأمرين**:

أحدهما: بالجنود، فقد كان حرس داود آلاف مؤلفة.

والثاني: أنه أُعطي هيبة في الناس، وذلك لقضية قضى بها، فازداد عند الناس مهابة.

أخرج الطبري[1] بسنده إلى ابن عباس رضي الله عنهما: أن رجلًا من بني إسرائيل استعدى على رجل من

(١) الطبري (٢٩٨١١)، وانظر: الواحدي (٣/ ٥٤٤- ٥٤٥)، والبغوي (٤/ ٥١).

عظمائهم، فاجتمعا عند داود النبي ﷺ، فقال المستعدي: إن هذا اغتصبني بقرًا لي، فسأل داود الرجل عن ذلك فجحده، فسأل الآخر البينة، فلم يكن له بيِّنة، فقال لهما داود: قوما حتى أنظر في أمركما، فقاما من عنده، فأوحى الله إلى داود في منامه أن يقتل الرجل الذي استُعدِي عليه، فقال: هذه رؤيا ولست أعجل حتى أتثبت، فأوحى الله إلى داود في منامه مرة أخرى أن يقتل الرجل، وأوحى الله إليه الثالثة أن يقتله أو تأتيه العقوبة من الله فأرسل داود إلى الرجل: إن الله قد أوحى إلي أن أقتلك، فقال الرجل: تقتلني بغير بينة ولا تثبت؟ فقال له داود: نعم، والله لأنفذنّ أمر الله فيك، فلما عرف الرجل أنه قاتله، قال: لا تعجل عليَّ حتى أخبرك، إني والله ما أُخذت بهذا الذنب، ولكني كنت اغتلت والد هذا فقتلته، فبذلك قُتلت. فأمر به داود فقُتل، فاشتدت هيبة بني إسرائيل عند ذلك لداود، وشدد به ملكه، فهو قول الله ﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ﴾.

هذا، وقد أوتي نبينا محمد ﷺ نصيبًا عظيمًا من هذه المهابة وقذف الرعب في قلوب أعدائه، ففي الحديث عن رسول الله ﷺ قال: «**نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ**»[١].

● هذا، ومع قوة ملك داود عليه السلام وشدته إلا أن الله سبحانه وتعالى منَّ عليه بالحكمة، فقد كان حكيمًا عليه السلام في إدارة مملكته، وحكيمًا على العموم في تصرفاته كلها، صلوات الله وسلامه عليه، فقيادة الناس وسياستهم وريادتهم كل ذلك يحتاج إلى حكمةٍ وبصيرة، فمن الناس من يحتاج إلى شدة فيشتد عليه، ومنهم من يحتاج إلى لينٍ في الخطاب فيُلان له القول، ومنهم من تكفيه الإشارة، ومنهم من لا يردع إلا بالسيف، ومنهم من هو طامعٌ جشعٌ مُلْحفٌ في السؤال، ومنهم من هو عفيفٌ متعففٌ قنوعٌ خجولٌ.

فالذي يسوسُ الناسَ ينبغي أن يكون حكيمًا في

(١) البخاري (حديث ٣٣٥) ومسلم (حديث ٥٢١).

تصرفاته فيضع الأمور في مواضعها الصحيحة، ويتكلم بالكلمات في محلها ولا يتعداها ولا يتخطاها!

فحقًّا لقد أُوتي داود عليه السلام خيرًا كثيرًا، قال تعالى: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿٢٦٩﴾﴾ [البقرة: الآية ٢٦٩].

وأوتي هذا النبي الكريم أيضًا ﴿فَصْلَ الْخِطَابِ﴾ كلماتٌ موجزةٌ قليلة تُفصل بها قضايا عظيمة، فقد أوتي **فهمًا في القضاء وإصابةً وسدادًا فيه**، ومن ذلك كما قال العلماء: أن **البينة على المدعي واليمين على المدعى عليه**، البينة على الطالب، واليمين على المطلوب منه.

أخرج الطبري بإسنادٍ حسن عن قتادة[1] قال: وفصل الخطاب: البينة على الطالب واليمين على المطلوب.

وقد أورد الطبري بعض الآثار عن التابعين بأن فصل

(١) أثر (٢٩٨٢٥)، وسائر الآثار عن شريح والشعبي، وابن زيد وأبي عبد الرحمن.

الخطاب الشاهد واليمين.

وآثارًا أخر أن فصل الخطاب القضاء.

ومن العلماء من قال: إن فصل الخطاب قوله: أما بعد، يفصل بها بين المقدمة وصلب الموضوع، قالوا فكان داود عليه السلام أول من استعملها. والله أعلم.

● هذا، ونلفت النظر أيضًا إلى أن نبينا محمدًا ﷺ قد أوتي الحظ الأكبر والنصيب الأوفر من ذلك.

ففي صحيح مسلم[1] عن رسول الله ﷺ قال: **«فُضِّلْتُ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ بِسِتٍّ: أُعْطِيتُ جَوَامِعَ الْكَلِمِ...»** الحديث.

● فالكلام الكثير ليس فيه كبير فائدة ولذا فقد كان رسول الله ﷺ يَنْهَى عَنْ قِيلَ وَقَالَ وَكَثْرَةِ السُّؤَالِ وَإِضَاعَةِ الْمَالِ[2]

(١) مسلم (حديث ٥٢٣).

(٢) أخرجه البخاري (حديث ٧٢٩٢) ومسلم (حديث ٥٩٣).

• وفي الحديث «... **وَإِنَّ أَبْغَضَكُمْ إِلَيَّ وَأَبْعَدَكُمْ مِنِّي مَجْلِسًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ الثَّرْثَارُونَ...**»[1] .

والثرثار: هو كثير الكلام ولكن الأنبياء ليسوا كذلك، فلهم عليهم السلام سمتٌ كريم وخلقٌ نبيل، وداود عليه السلام منهم، وقد أوتي ﴿وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ﴾.

ثم ذكر الله سبحانه وتعالى قصةً حدثت لهذا النبي الكريم عليه الصلاة والسلام، فيها جملةٌ من الفوائدِ والعبرِ ، كما هو الشأن في سور هذا الكتاب المبارك كتاب الله عزَّ وجل، فقال تعالى: ﴿ وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا۟ ٱلْمِحْرَابَ ﴿٢١﴾ ﴾ [ص: الآية ٢١] أي: قد أتاك، أليس قد بلغك خبر المتخاصمين المختلفين، اللَّذين تسلقا سور المحراب، ودخلا على داود عليه السلام محرابه؟!

أما المحراب: فهو مقدم كل مجلس وكل بيت، وأشرف مكانٍ فيه.

(١) أخرجه الترمذي (حديث ٢٠١٨)، وهو حسن لشواهده.

ولنرجع إلى الخصمين، إنهما لم يأتيا البيوت من أبوابها، بل تسلقا السور حتى دخلوا المحراب!!، وكما هو معلوم فإن البيوت تؤتى من أبوابها، ويدخلها الداخل بعد استئذان، لقوله تعالى: ﴿وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا﴾ [البقرة: الآية ١٨٩]، ولقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا۟ وَتُسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَهْلِهَا﴾ [النور: الآية ٢٧].

ولكن الخصمان لم يستأذنا في الدخول، ولم يأتيا البيت من بابه، بل أتوه من أعلى السور، فهذا الذي أفزع نبي الله داود عليه السلام !!

وثَمَّ سؤال يطرح:

هل هذان الخصمان ملكان من الملائكة في صورة بشر؟؟ أم هما خصمان من بني آدم؟؟

الله أعلم بالصواب من ذلك.

ثم إن هنا أمران ننبه عليهما:

أحدهما: أن الملائكة قد تأتي بني آدم في صورة بشر.

وعلى ذلك أدلة متعددة من كتاب الله عزَّ وجل، ومن سنة رسوله محمد ﷺ، **فمن كتاب الله عز وجل:**

● قوله تعالى في شأن مريم عليها السلام ﴿فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾ [مريم: الآية ١٧].

● وقوله تعالى في شأن إبراهيم عليه السلام: ﴿وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُواْ سَلَٰمًا قَالَ سَلَٰمٌ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ﴾ [هود: الآية ٦٩].

● وقوله تعالى في شأن لوط عليه السلام ﴿وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴿٧٧﴾﴾ [هود: الآية ٧٧] إلى قوله ﴿إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيْكَ﴾ [هود: الآية ٨١].

● **ومن سنة رسول الله ﷺ:**

● مجيء جبريل في صورة رجلٍ شديد بياض الثياب

شديد سواد الشعر، وسؤاله عن الإسلام، والإيمان، والإحسان، والساعة(١)، على ما في حديث عمر رضي الله عنه في صحيح مسلم.

● وحديث الأبرص والأقرع والأعمى الذين ابتلاهم الله عز وجل(٢).

● وحديث الرجل الذي زار أخًا له في الله فأرصد الله له ملكًا على مدرجته(٣).

وكثيرٌ جدًّا من الأحاديث في هذا الباب.

فالحاصل:

أولًا: أن الملائكة قد تأتي في صورة بشر، وتُكلِّم الناسَ، وكل هذا بإذن الله.

ثانيًا: أن من أهل العلم من نفى الخلاف في كون الخصمين من الملائكة.

(١) مسلم (حديث رقم ٨).
(٢) البخاري (حديث ٥٠٠)، ومسلم (٢٢٧٥).
(٣) مسلم (حديث ٢٥٦٧).

قال القرطبي رحمه الله: **ولا خلاف بين أهل التفسير أنه يُراد به هاهنا ملكان.**

فالله تعالى أعلم بالصواب.

وتردُ أسئلة على من قال إنهما ملكان:

السؤال الأول: كيف يتسورا المحراب وهما ملكان؟!

وجوابه أنهما صنعا ما يصنع البشر لإزالة الالتباس عنهما.

الثاني: كيف يكونا ملكين وبينهما خصومة؟!

وجوابه أن الله رخص لهما في قول ذلك للابتلاء والاختبار.

الحاصل أن داود عليه السلام رأى الخصمين، فمن ثمَّ فزع منهم، ولا ضير في هذا على داود عليه السلام **فالفزع الجبلي، والخوف الجبلي يتسربان حتى إلى أهل الصلاح** .

- قال تعالى في شأن نبيه موسى عليه السلام لما رأى

العصا وقد أُلقيت، تهتز كأنها جآن: ﴿فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ﴾ [القصص: الآية ٣١].

● وقال نبي الله يعقوب عليه السلام لنبيه لما سألوه أن يترك يوسف معهم ﴿وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَٰفِلُونَ﴾ [يُوسُف: الآية ١٣] وقال نبي الله موسى عليه السلام ﴿وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنۢبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿١٤﴾﴾ [الشُّعَرَاء: الآية ١٤].

● وقال تعالى في شأن أهل الإيمان: ﴿وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِى ٱلْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ﴾ [الأنفَال: الآية ٢٦].

● فلا ضير ولا حرج ولا عتب على داود عليه السلام إذ فزع منهم!!

● ولكن ماذا صنع الخصمان لما فزع داود عليه السلام منهم؟!

إنهم طمأنوه، وأذهبوا الخوف عنه بقولهم ﴿لَا تَخَفْ﴾ [هُود: الآية ٧٠].

وهكذا ينبغي أن يكون المؤمن مع أخوانه لا يروعهم ولا يزعجهم، بل يُذهب عنهم الروع والخوف قدر استطاعته.

● ولما تمثل المَلَك لمريم عليها السلام بشرًا سويًا، وقالت له ﴿إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحۡمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيّٗا﴾ [مريم: الآية ١٨] ﴿قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمٗا زَكِيّٗا ١٩﴾ [مريم: الآية ١٩].

● وأيضًا فإنها لما ألجأها المخاض إلى جذع النخلة فقالت ﴿يَٰلَيۡتَنِي مِتُّ قَبۡلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسۡيٗا مَّنسِيّٗا ٢٣ فَنَادَىٰهَا مِن تَحۡتِهَآ أَلَّا تَحۡزَنِي قَدۡ جَعَلَ رَبُّكِ تَحۡتَكِ سَرِيّٗا ٢٤﴾.

● والملائكة عليهم السلام يطمئنون إبراهيم عليه السلام فيقولون ﴿لَا تَخَفۡ﴾ [هود: الآية ٧٠].

● ويطمئنون لوطًا لما قال هذا يوم عصيب فيقولون ﴿إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيۡكَۖ﴾ [هود: الآية ٨١].

● أيضًا أخرج أبو داود[1] بإسناد صحيح عن عَنْ

---

(١) أبو داود (٥٠٠٤)، وأحمد (٥/ ٣٦٢).

عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِي لَيْلَى قَالَ: حَدَّثَنَا أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُمْ كَانُوا يَسِيرُونَ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي مَسِيرٍ فَنَامَ رَجُلٌ مِنْهُمْ فَانْطَلَقَ بَعْضُهُمْ إِلَى نَبْلٍ مَعَهُ فَأَخَذَه فَلَمَّا اسْتَيْقَظَ الرَّجُلُ فَزِعَ، فَضَحِكَ الْقَوْمُ، فَقَالَ: **«مَا يُضْحِكُكُمْ؟»** فَقَالُوا: لَا، إِلَّا أَنَّا أَخَذْنَا نَبْلَ هَذَا فَفَزِعَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: **«لَا يَحِلُّ لِمُسْلِمٍ أَنْ يُرَوِّعَ مُسْلِمًا»**.

● وأخرج أبو داود[١] وأحمد وعبد بن حميد وغيرهم بإسناد حسن من حديث عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ السَّائِبِ بْنِ يَزِيد، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ جَدِّهِ، أَنَّهُ سَمِعَ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: **«لَا يَأْخُذَنَّ أَحَدُكُمْ مَتَاعَ صَاحِبِهِ جَادًّا وَلَا لَاعِبًا، وَإِذَا وَجَدَ أَحَدُكُمْ عَصَا صَاحِبِهِ فَلْيَرْدُدْهَا عَلَيْهِ»**.

● وفي «الصحيحين»[٢] كذلك من حديث أَبِي

(١) أبو داود (٥/ ٢٧٣)، وعبد بن حميد (٤٣٦)، وأحمد (٤/ ٢٢١).

(٢) البخاري (٧٠٧٥)، ومسلم (حديث ٢٦١٥).

مُوسَى الأشعري عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**إِذَا مَرَّ أَحَدُكُمْ فِي مَسْجِدِنَا - أَوْ فِي سُوقِنَا - وَمَعَهُ نَبْلٌ فَلْيُمْسِكْ عَلَى نِصَالِهَا**» أَوْ قَالَ: «**فَلْيَقْبِضْ بِكَفِّهِ أَنْ يُصِيبَ أَحَدًا مِنَ الْمُسْلِمِينَ مِنْهَا شَيْءٌ**».

● وفي الصحيح[١] كذلك من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال أبو القاسم ﷺ: «**مَنْ أَشَارَ إِلَى أَخِيهِ بِحَدِيدَةٍ فَإِنَّ الْمَلَائِكَةَ تَلْعَنُهُ حَتَّى يَدَعَهُ، وَإِنْ كَانَ أَخَاهُ لِأَبِيهِ وَأُمِّهِ**».

● **ثم بدأ الخصوم - بعد أن طمأنوا نبي الله داود عليه السلام - في عرض القضية**، وهل هي قضية حقيقية حدثت فعلًا؟؟ أم أن ذلك كان لتذكير نبي الله داود عليه السلام بأمرٍ مشابه حدث له؟؟

الله أعلم بالصواب من ذلك.

عرضوا قضيتهم فقالوا: ﴿خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ أي ظلم بعضُنا بعضًا، وتعدى بعضُنا على

(١) مسلم (حديث ٢٦١٦).

بعضٍ، وجَارَ بعضنا على بعض!!

●ثم ذكروه بقولهم ﴿فَٱحْكُم بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ﴾ [ص: الآية ٢٢] فسبحان الله خصم يُذكر القاضي والحاكم والخليفة؟! نعم يُذكره لكنها تذكرةٌ بالمعروف، تذكرةٌ بالحكمة والموعظة الحسنة ومالهم لا يذكروه، و﴿ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الذاريات: الآية ٥٥] .

● **وكذا أيضًا يُشرع للحاكم والقاضي أن يُذكِّر المتخاصمين بالله عز وجل،** ويحثهم على مراقبته وخشيته، وقد وردت بذلك جملة أدلة:

●فمن ذلك ما ورد عن رسول الله ﷺ من تذكير المتخاصمين، ففي «الصحيحين»[1] من حديث أُمِّ سَلَمَةَ قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ «**إِنَّكُمْ تَخْتَصِمُونَ إِلَيَّ وَلَعَلَّ بَعْضَكُمْ أَنْ يَكُونَ أَلْحَنَ[2] بِحُجَّتِهِ مِنْ بَعْضٍ فَأَقْضِي لَهُ عَلَى نَحْوٍ مِمَّا أَسْمَعُ مِنْهُ، فَمَنْ قَطَعْتُ لَهُ مِنْ**

(١) البخاري (حديث ١٧٨١)، ومسلم (حديث ١٧١٣).

(٢) ألحن: أي أعلم بالحجة، وأبلغ في الكلام.

حَقِّ أَخِيهِ شَيْئًا فَلَا يَأْخُذْهُ، فَإِنَّمَا أَقْطَعُ لَهُ بِهِ قِطْعَةً مِنَ النَّارِ».

● ومن ذلك ما أخرجه البخاري[1] من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، أن هلال بن أمية قذف امرأته فجاء فشهد[2]، والنبي ﷺ يقول: «**إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ أَنَّ أَحَدَكُمَا كَاذِبٌ فَهَلْ مِنْكُمَا تَائِبٌ**» ثم قامت فشهدت.

● ومن ذلك ما أخرجه البخاري ومسلم[3] من حديث عائشة رضي الله عنها، قالت: سمع رسول الله ﷺ صَوْتَ خُصُومٍ بِالْبَابِ عَالِيَة أَصْوَاتُهُمَا، وَإِذَا أَحَدُهُمَا يَسْتَوْضِعُ الْآخَرَ وَيَسْتَرْفِقُهُ[4] فِي شَيْءٍ، وَهُوَ يَقُولُ: وَاللَّهِ لَا أَفْعَلُ، فَخَرَجَ عَلَيْهِمَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: «**أَيْنَ**

---

(١) (حديث ٥٣٠٧).

(٢) أي شهد أربعة أيمان بالله إنه لمن الصادقين، والخامسة أن لعنة الله عليه إن كان من الكاذبين.

(٣) مسلم (حديث ١٥٥٧)، والبخاري (٢٧٠٥).

(٤) يسترفقه: أي يطلب من الرفق.

الْمُتَأَلِّي[1] **عَلَى اللَّهِ لَا يَفْعَلُ الْمَعْرُوفَ؟» فَقَالَ: أَنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَلَهُ أَيُّ ذَلِكَ أَحَبَّ.**

أما قولهما: ﴿وَلَا تُشْطِطْ﴾ أي ولا تَمِل ولا تَجُر ولا تظلم، ولا تسرف في الحكم بالميل مع واحدٍ على صاحبه.

﴿وَاهْدِنَا إِلَىٰ سَوَاءِ الصِّرَاطِ﴾ أي وأرشدنا إلى قصد الطريق المستقيم، ودلنا على أبواب الحق وطرائقه كي نسلكها.

ثم بداية القضية ﴿إِنَّ هَٰذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً﴾.

تعريفُ الخصم بخصمه أمام القاضي، وقوله: ﴿إِنَّ هَٰذَا أَخِي﴾ على ملتي وديني، فسبحان الله لم تنقطع الأخوة الإيمانية بالخصومة والمظلمة، وثمَّ ما هو أعظم من ذلك، ألا وهو أن الأخوة الإيمانية ما زالت باقية حتى مع القتل، قال تعالى: ﴿فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ

(١) المتألي: الحالف.

شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌۢ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَٰنٍ﴾ [البقرة: الآية ١٧٨] .

ألا فليتق الله المخاصم الفاجر الذي يقطع مع خصومته الأخوة ولا يرقب في مؤمنٍ عهدًا ولا قرابة، ولا رحمًا بل ولا دينًا!!

ألا فليعلم المخاصم الفاجر أن فيه شعبةً من نفاقٍ وعلامةً من علاماته، **ألا وهي الفجور في الخصومة «وَإِذَا خَاصَمَ فَجَرَ»**[1].

لكن الخصمان عند داود كانا على تقىً كما هو واضح من حديثهما إذ قالوا ﴿فَاحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَاهْدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ الصِّرَٰطِ إِنَّ هَٰذَآ أَخِى لَهُۥ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً﴾ .

وهل هي نعاجٌ على الحقيقة؟ قال بذلك بعض أهل العلم ويشهد له ظاهر القرآن الكريم.

وقال آخرون: إنه أريد بالنعاج هنا النساء، فقوله ﴿لَهُۥ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً﴾ أي تسع وتسعون امرأة.

---

(١) البخاري (حديث ٣٤) ومسلم (حديث ٥٨).

﴿وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ﴾ على الخلاف المتقدم، قيل: إنها نعجة على الحقيقة، وقيل: إن المعنى امرأة، والله أعلم بالصواب من ذلك.

ثم ماذا كان من أمر الخصم؟؟؟

كان أن قال صاحب التسعة والتسعين نعجة لأخيه ﴿أَكْفِلْنِيهَا﴾ أي: أعطنيها – تنازل لي عنها وضمها إليَّ حتى أكفلها، أعطنيها أتمم بها المائة.

فسبحان الله الذي خلق الخلق على سجايا وطباعٍ!! وسبحان من قسم الأخلاق كما قسم الأرزاق!!!

تأخذ مني نعجتي وتكمل بها مائة وتتركني بلا نعجة واحدة؟!!

هكذا يريد الخصم أن يضم إلى نعاجه التسعة والتسعين ما يتمم به المائة، ولو كان على حساب أخذه نعجة أخيه!!!

ثم إن الخصم قال: ﴿وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ﴾ أي: طلب

مني نعجتي وغلبني بالحجة والكلام، فهو إن بطش قهر وإن تكلم أوضح وأبان، فهو أعزّ مني وأقوى مني في الكلام.

فهكذا كم من حقوقٍ تذهب، وكم من ظلمٍ يقع، وكم من أموالٍ تضيع بسبب فصاحة اللسان، واستعمال تلك الفصاحة في الباطل والزور، ومن ثمَّ فقد حذر النبي ﷺ من مثل ذلك فقال عليه الصلاة والسلام فيما قد سبق من الحديث: **«إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ، وَإِنَّكُمْ تَخْتَصِمُونَ إِلَيَّ وَلَعَلَّ بَعْضَكُمْ أَنْ يَكُونَ أَلْحَنَ بِحُجَّتِهِ مِنْ بَعْضٍ فَأَقْضِي لَهُ عَلَى نَحْوٍ مِمَّا أَسْمَعُ مِنْهُ، فَمَنْ قَطَعْتُ لَهُ مِنْ حَقِّ أَخِيهِ شَيْئًا فَلَا يَأْخُذْهُ، فَإِنَّمَا أَقْطَعُ لَهُ بِهِ قِطْعَةً مِنَ النَّارِ»**.

● وقد وصف النبي ﷺ من يُريد الذهاب بحقوق الناس بأسلوبه وخطابه وسجعه بأنه من إخوان الكهان ففي الصحيحين أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَضَى فِي امْرَأَتَيْنِ مِنْ هُذَيْلٍ اقْتَتَلَتَا، فَرَمَتْ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى بِحَجَرٍ فَأَصَابَ

بَطْنَهَا وَهِيَ حَامِلٌ فَقَتَلَتْ وَلَدَهَا الَّذِي فِي بَطْنِهَا، فَاخْتَصَمُوا إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَضَى: أَنَّ دِيَةَ مَا فِي بَطْنِهَا غُرَّةٌ عَبْدٌ أَوْ أَمَةٌ، فَقَالَ وَلِيُّ الْمَرْأَةِ الَّتِي غَرِمَتْ: كَيْفَ أَغْرَمُ يَا رَسُولَ اللَّهِ مَنْ لَا شَرِبَ وَلَا أَكَلَ وَلَا نَطَقَ وَلَا اسْتَهَلَّ فَمِثْلُ ذَلِكَ يُطَلُّ[1] فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**إِنَّمَا هَذَا مِنْ إِخْوَانِ الْكُهَّانِ**»[2].

فهنالك، وبعد عرض هذه القضية قضية شخصية، شخص له تسع وتسعون نعجة، وآخر له نعجةٌ واحدة فطلبها منه كي يضمها إلى نعاجه وغلبه بالحجة والبيان، هنالك قضى نبي الله داود عليه السلام، بعد أن استمع إلى صاحب الشكوى، فقال ﴿لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ﴾[3] أي بطلب ضم نعجتك إلى نعاجه.

(١) أي: ينبغي أن تهدر ديته.

(٢) البخاري (حديث ٥٧٥٨) ومسلم (حديث ١٦٨١).

(٣) أي بسؤاله: أي بطلبه، ونحوه في حذف الهاء ﴿لَّا يَسْـَٔمُ ٱلْإِنسَـٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ﴾ [فصلت: الآية ٤٩] أي: من دعائه بالخير.

ثم بُيِّنت حقيقةٌ لعل متعظًا يتعظ ومعتبرًا يعتبر ومتفطنًا يتفطن!!!، ألا وهي ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾.

أما الخلطاء فمن العلماء من قال: إنهم الأصحاب، ومنهم من قال: إنهم الشركاء.

قال القرطبي رحمه الله تعالى: وأكثر العلماء على أن الخلطاء صورتهم أن يأتي كلُّ واحدٍ بغنمه، فيجمعها راع واحد، والدلو والمراح واحد.

فالحاصل أن كثيرًا من الخلطاء – من الشركاء – يبغي بعضهم على بعض.

يجور بعضهم على بعض، ويتطاول بعضهم على بعض ويمد بعضهم يده إلى مال بعض ويأخذه بغير حقه.

فليتفطن لذلك الذين يستثمرون أموال الناس؛ فإنهم يبدأون في أول أمرهم على استقامةٍ وصلاح، ثم إذا رزقهم الله عز وجل فبدلًا من أن يقدموا شكرًا فإنهم

يتخوضون في أموال المسلمين، وتمتد أعينهم إليها ويأخذونها بغير حقها، بل يأكلونها بالباطل وليتفطن كل شريك، وليتفطن كلُّ من له مال قد اختلط بمال غيره.

إن نبينا محمدًا ﷺ قد قال يوم النحر بمكة: «**إِنَّ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ وَأَعْرَاضَكُمْ عَلَيْكُمْ حَرَامٌ كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا فِي شَهْرِكُمْ هَذَا فِي بَلَدِكُمْ هَذَا...**»(١).

وقال تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ﴾ [البقرة: الآية ١٨٨].

فهذه نصوص تنهى عن أكل أموال الناس بالباطل وتحذر منه ذلك أشد التحذير، ولكن مَنْ الممتثل لذلك؟ ما امتثل لذلك وما سمع وأطاع إلا القليل، ألا وهم أهل الإيمان والعمل الصالح، قال تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾ [ص: الآية ٢٤].

(١) البخاري (حديث ٤٤٠٦) ومسلم (ص١٣٠٦) من حديث أبي بكرة رضي الله عنه مرفوعًا.

نَعَمْ أهل الإيمان قلةٌ.

● قال تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ﴾ [سَبَإ: الآية ١٣].

● وقال تعالى: ﴿مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [آل عِمرَان: الآية ١١٠].

● وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾﴾ [يُوسُف: الآية ١٠٣].

فهذا الإخبار بقلة أهل الإيمان حتى لا يستوحش السالكون طريق الهداية لقلة سالكيه.

هذا الإخبار لمواساة أهل الإيمان ولإيناسهم!! ولنرجع إلى ما كان من أمر نبي الله داود عليه السلام ، قال تعالى: ﴿وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ﴿٢٤﴾ فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ﴾.

ماذا عن معنى ﴿ظَنَّ﴾؟!!!، وهل فتناه؟! ولماذا فتناه؟! وكيف فتناه؟! واستغفر ربه من ماذا؟!!

أما كلمة ﴿ظَنَّ﴾ فأحيانًا تأتي بمعنى علم وأيقن، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: الآية ٢٤٩].

وقول المؤمن يوم القيامة: ﴿إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَٰقٍ حِسَابِيَهۡ ۝٢٠﴾ [الحاقة: الآية ٢٠] أي: أيقنتُ.

ولكن هل هي في هذا الموطن ﴿وَظَنَّ دَاوُۥدُ﴾ بهذا المعنى: علم وأيقن؟!!

قد قال بذلك بعض العلماء، منهم قتادة رحمه الله(١) والله أعلم.

● أما سائر التساؤلات التي ذُكرت فلا أعلم دليلًا صريحًا صحيحًا في الإجابة عليها، إنما هي أقوال فريقٍ من العلماء، من الصحابة والتابعين فمن بعدهم، وكثيرٌ منها يبدو أنه مأخوذ من الإسرائيليات، وكثير منها لا يصح سنده إلى قائله، فنسوقها على وجه الإجمال

(١) أخرج ذلك الطبري (٢٩٨٤٨) بسند حسن عن قتادة، وهو اختيار الطبري أيضًا.

مستغفرين الله عز وجل أولًا وآخرًا، غير جازمين بصحة ما نقوله؛ إذ ليس عليه دليل من الكتاب أو السنة الصحيحة مُنزهين نبي الله داود عليه السلام عن كل شائنةٍ وكل عيبٍ، فهو نبي كريم جعله الله خليفةً في الأرض له في الآخرة زلفى وحسن مآب، لنا فيه أسوةٌ، وهو لنا على الإجمال قدوة، فهو ممن قال الله فيهم: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ ۗ﴾ [الأنعام: الآية ٩٠] .

● ثم إن الحامل لنا على إيراد ما سنورده مجملًا ثم ببعض التفصيل هو أن جماهير المفسرين أوردوه في تفاسيرهم وتناقلوه عن الصحابة والتابعين فمن بعدهم، فلما لم يكن من شأننا هجران ما ذكره جمهور السلف الصالح، فمن ثَمَّ أوردته، وأوردت بعض وجوه التعقب التي ذكرها بعض العلماء عليه، والله المستعان على كل شيء، وهو الموفق للحق والصواب، وهو أعلم بكتابه وأعلم بمراده، ولا حول ولا قوة إلا بالله، فنقول وبالله التوفيق:

● **إن حاصل ما ذكره عددٌ من المفسرين في هذا الصدد**، وفحواه: أن نبي الله داود عليه السلام سمع الثناء الحسن على أنبياء الله الكرام عليهم الصلاة والسلام: إبراهيم وإسحاق ويعقوب، فسأل ربه سبحانه وتعالى ثناءً مثل هذا الثناء، فقيل لداود عليه السلام إنهم ابتلوا فصبروا، فسأل أن يبتلى كما ابتلوا عليهم السلام، فمرت الأيام ودارت حتى نسي السؤال الذي كان سأل، ثم إنه ذات يوم ابتلي، فوقع بصره على امرأة حسناء فوقعت في قلبه، فسأل عنها فوجد أنها ذات زوج، فطلب من زوجها أن يطلقها حتى يتزوجها، فمن ثَمَّ كان هذا هو البلاء الذي ابتلي به، واستغفر منه، وخرَّ راكعًا وأناب!

● وزاد البعض زيادات، ألا وهي: أنه أرسل زوجها للقتال، ومن ثَمَّ إذا قُتِل زوجها تزوجها.

وهذا ظن لا يليق بنبي كريم كداود عليه السلام.

هذا حاصل ما ذُكر في هذه القصة.

● **أما الخبر الوارد في ذلك عن رسول الله ﷺ فهو**

خبرٌ ضعيف جدًّا لا يصح عن رسول الله ﷺ، ألا وهو ما أخرجه الطبري[١] من طريق يزيد الرقاشي عن أنس رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن داود حين نظر إلى المرأة فأهمَّ قطع على بني إسرائيل، فأوصى صاحب البعث فقال: إذا حضر العدو فقرِّب فلانًا بين يدي التابوت . . .» الحديث، فهو ضعيف جدًّا من أجل يزيد الرقاشي: ضعيف جدًّا، بل متروك.

● وقد **قاله الطبري أيضًا** في تفسير قوله تعالى: ﴿وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ﴾ [ص: الآية ٢٤]:

واختلف في سبب البلاء الذي ابتلي به نبي الله داود عليه السلام فقال بعضهم كان سبب ذلك أنه تذكر ما أعطى الله إبراهيم وإسحاق ويعقوب من حسن الثناء الباقي لهم في الناس فتمنى مثله، فقيل له: إنهم امتحنوا فصبروا، فسأل أن يُبتلى كالذي ابتلوا، ويعطى كالذي أُعطوا إن هو صبر.

---

(١) الطبري (٢٩٨٥٩).

ثم أورد الطبري آثارًا في هذا الصدد لا يخلو أثر منها من مقالٍ، ثم هي موقوفات ومقطوعات، منها ما أورده عن الحسن: أن داود جزأ الدهر أربعة أجزاء: يومًا لنسائه، ويومًا لعبادته، ويومًا لقضاء بني إسرائيل، ويومًا لبني إسرائيل يذاكرهم ويذاكرونه، ويبكهم ويبكونه، فلما كان يوم بني إسرائيل قال: ذاكروا فقالوا: هل يأتي على الإنسان يوم لا يصيب فيه ذنبًا؟ فأضمر داود في نفسه أنه سيطيق ذلك. فلما كان يوم عبادته أغلق أبوابه، وأمر أن لا يدخل عليه أحد، وأكبّ على التواراة، فبينما هو يقرؤها، فإذا حمامة من ذهب فيها من كل لون حسن قد وقعت بين يديه، فأهوى إليها ليأخذها، قال: فطارت، فوقعت غير بعيد، من غير أن تؤيسه من نفسها، قال: فما زال يتبعها حتى أشرف على امرأة تغتسل، فأعجبه خلْقها وحُسنها، قال: فلما رأت ظله في الأرض جللت نفسها بشعرها، فزاده ذلك أيضًا إعجابًا بها، وكان قد بعث زوجها على

بعض جيوشه، فكتب إليه أن يسير إلى مكان كذا وكذا، مكانٍ إذا سار إليه لم يرجع، قال: ففعل فأُصيب، فخطبها فتزوجها.

قال: وقال قتادة: بلغنا أنها أمّ سليمان، قال: فبينما هو في المحراب إذ تسور الملكان عليه، وكان الخصمان إذا أتوه يأتونه من باب المحراب، ففزع منهم حين تسوروا المحراب، فقالوا: ﴿لَا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ حتى بلغ ﴿وَلَا تُشْطِطْ﴾ أي: لا تمل ﴿وَاهْدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ﴾ أي: أعدله وخيره ﴿إِنَّ هَٰذَآ أَخِى لَهُۥ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً﴾، وكان لداود تسع وتسعون امرأة ﴿وَلِىَ نَعْجَةٌ وَٰحِدَةٌ﴾ قال: وإنما كان للرجل امرأة واحدة ﴿فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِى فِى ٱلْخِطَابِ﴾ أي: ظلمني وقهرني، فقال: ﴿لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ﴾ إلى قوله: ﴿وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ وَظَنَّ دَاوُۥدُ﴾ فعلم داود أنما صُمد له: أي عني به ذلك ﴿وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ﴾. قال: وكان في حديث مطر أنه سجد أربعين

ليلة، حتى أوحى الله إليه: إني قد غفرت لك، قال: رب وكيف تغفر لي وأنت حكم عدل، لا تظلم أحدًا؟ قال: إني أقضيك له، ثم استوهبه دمك أو ذنبك، ثم أثيبه حتى يرضى، قال: الآن طابت نفسي وعلمت أنك قد غفرت لي.

قلت (مصطفى): ولعل هذا مأخوذٌ من الإسرائيليات.

وأورد الطبري رحمه الله تعالى أثرين عن ابن مسعود وابن عباس رضي الله عنهما، وفي كل منهما مقال فحواهما: أنهما قالا ما زاد داود عليه السلام على أن قال: انزل لي عنها[1].

هذه هي القصة على وجه الإجمال، وبعض الوارد فيها، وقد أشرنا إلى ضعف أسانيد الآثار الواردة فيها، وها هي طائفة أُخرى من أقوال أهل العلم يرحمهم الله:

قال القاسمي في محاسن التأويل:

للمفسرين في هذا النبأ أقوال عديدة ووجوه متنوعة

(١) الطبري (أثر ٢٩٨٣٨)، (٢٩٨٣٩)، (٢٩٨٤٠).

مرجعها إلى مذهبين: مذهب من يرى أنها تشير تعريضًا إلى وزر ألَمَّ به داود عليه السلام ثم غفر له. ومذهب من يرى أنها حكومة في خصمين لا إشعار لها بذلك. فممن ذهب إلى الأول ابن جرير. فإنه قال هذا مَثَل ضربه الخصم المتسورون على داود محرابه. وذلك أن داود كانت له -فيما قيل- تسع وتسعون امرأة. وكانت للرجل الذي أغزاه حتى قتل امرأة واحدة. فلما قُتل نكح -فيما ذكر- داود امرأتَه. ثم لما قضى للخصمين بما قضى علم أن ابتلي. فسأل غفران ذنبه وخرّ ساجدًا لله، وأناب إلى رضا ربه، وتاب من خطيئته.

هذا ما قاله ابن جرير. ثم أسند قصته مطولة من رواياتٍ عن ابن عباس والسدي وعطاء والحسن وقتادة ووهب ومجاهد. ومن طريقٍ عن أنس مرفوعًا. ويشبه سياق بعضها ما ذكر في التوارة المتداولة الآن.

قال السيوطي في الإكليل:

القصة التي يحكونها في شأن المرأة، وأنها أعجته، وأنه أرسل زوجها مع البعث حتى قتل، أخرجها ابن أبي حاتم من حديث أنس مرفوعًا، وفي إسناده ابن لهيعة -وحاله معروف، عن ابن صخر عن يزيد الرقاشي- وهو ضعيف. وأخرجها من حديث ابن عباس موقوفًا. انتهى.

أقول: أما المرفوع إلى النبي ﷺ فيها، فلم يأت من طريق صحيح. وأما الموقوف من ذلك على الصحب والأتباع رضي الله عنهم، فمعولهم في ذلك ما ذكر في التوارة من هذا النبأ، أو الثقة بمن حكى عنها. وينبني على ذلك ذهابهم إلى تجويز مثل هذا على الأنبياء. وقد ذهبت طائفة إلى تجويز ما عدا الكذب في التبليغ. كما فُصّل في مطولات الكلام.

قال ابن حزم رحمه الله:

وهو قول الكرامية من المرجئة، وابن الطيب الباقلاني من الأشعرية، ومن اتبعه. وهو قول اليهود والنصارى. ثم رد هذا القول رحمه الله ردًّا متينًا.

وأما المذهب الثاني: فهو ما جزم به ابن حزم في «الفِصَل» وعبارته: ما حكاه تعالى عن داود عليه السلام قول صادق صحيح، لا يدل على شيء مما قاله المستهزئون الكاذبون المتعلقون بخرافاتٍ ولدها اليهود. وإنما كان ذلك الخصم قومًا من بني آدم، بلا شك، مختصمين في نعاج من الغنم على الحقيقة بينهم. بغى أحدهما على الآخر على نص الآية. ومن قال إنهم كانوا ملائكة معرضين بأمر النساء فقد كذب على الله عز وجل، وقوَّله ما لم يقل، وزاد في القرآن ما ليس فيه، وكذب الله عز وجل، وأقر على نفسه الخبيثة أنه كذب الملائكة؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُاْ

ٱلْخَصْمِ﴾ فقال هو: لم يكونوا قط خصمين، ولا بغى بعضهم على بعض، ولا كان قط لأحدهما تسع وتسعون نعجة، ولا كان للآخر نعجة واحدة، ولا قال له أكفلنيها. فاعجبوا لِمَا يقحم فيه أهل الباطل أنفسهم. ونعوذ بالله من الخذلان. ثم كل ذلك بلا دليل، بل الدعوى المجردة. وتالله! إن كل امرئ منا ليصون نفسه وجاره المستور عن أن يتعشَّق امراة جاره، ثم يعرِّض زوجها للقتل عمدًا، ليتزوجها. وعن أن يترك صلاته لطائر يراه. هذه أفعال السفهاء المتهوكين الفساق المتمردين. لا أفعال أهل البر والتقوى. فكيف برسول الله داود ﷺ الذي أوحى إليه كتابه وأجرى على لسانه كلامه؟ لقد نزّهه الله عز وجل عن أن يمر مثل هذا الفحش بباله. فكيف أن يستضيف إلى أفعاله؟ وأما استغفاره وخروره ساجدًا، ومغفرة الله له، فالأنبياء عليهم السلام أولى الناس بهذه الأفعال الكريمة. والاستغفار فعل خير لا يُنكَر من مَلَكٍ ولا من نبي.

ولا من مذنب ولا من غير مذنب. فالنبي يستغفر الله لمذنبي أهل الأرض. والملائكة كما قال تعالى: ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ﴾ [غافر: الآية ٧] وأما قوله تعالى عن داود عليه السلام: ﴿وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ﴾ [ص: الآية ٢٤] وقوله تعالى: ﴿فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ﴾ [ص: الآية ٢٥] فقد ظن داود عليه السلام أن يكون ما آتاه الله عز وجل من سعة الملك العظيم فتنة. فقد كان رسول الله ﷺ يدعو في أن يثبت الله قلبه على دينه. فاستغفر الله تعالى من هذا الظن، فغفر الله تعالى له هذا الظن. إذ لم يكن ما آتاه الله تعالى من ذلك فتنة. انتهى كلام ابن حزم، وهو وقوف على ظاهر الآية، مجردًا عن إشارة وإيماء.

وقال البرهان البقاعي في تفسيره:

وتلك القصة وأمثالها من كذب اليهود.

ثم قال: وأخبرني بعض من أسلم منهم أنهم يتعمدون ذلك في حق داود عليه السلام. لأن عيسى عليه السلام من ذريته، ليجدوا سبيلًا إلى الطعن فيه. انتهى.

ثم قال: وقوله تعالى: ﴿فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ﴾ أي الوقوع في الحديث عن إسناد الظلم إلى أحد بدون سماع لكلامه. وهذه الدعوى تدريب لداود عليه السلام في الأحكام. وذكرها للنبي ﷺ تدريب له في الأناة في جميع أموره على الدوام. ولما ذكر هذا، ربما أوهم شيئًا في مقامه ﷺ، فدفعه بقوله: ﴿وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٢٥﴾﴾ فالقصة لم يجز ذكرها إلا للترقية في رتب الكمال. وأول دليل على ما ذكرته، أن هذه الفتنة إنما هي بالتدريب في الحكم، لا بامرأة ولا غيرها. وأن ما ذكروه من قصة المرأة باطل وإن اشتهر. فكم من باطل مشهور، ومذكور هو عين الزور. انتهى.

وقال ابن كثير:

قد ذكر المفسرون هاهنا قصة أكثرها مأخوذ من الإسرائيليات. ولم يثبت فيها عن المعصوم حديث يجب اتباعه. ولكن روى ابن ابن أبي حاتم هنا حديثًا لا يصح سنده، لأنه من رواية يزيد الرقاشي عن أنس رضي الله عنه. ويزيد وإن كان من الصالحين، لكنه ضعيف الحديث عند الأئمة. فالأولى أن يقتصر على مجرد تلاوة هذه القصة، وأن يردّ علمها إلى الله عز وجل. فإن القرآن حق، وما تضمن فهو حق أيضًا. انتهى.

وقال القاضي عياض في «الشفا»:

وأما قصة داود عليه السلام، فلا يجب أن يلتفت إلى ما سطره فيها الإخباريون على أهل الكتاب الذين بدلوا وغيروا، ونقله بعض المفسرين. ولم ينص الله على شيء من ذلك، ولا ورد في حديث صحيح. والذي

نص الله عليه قوله: ﴿وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ﴾ وقوله فيه: ﴿أَوَّابٌ﴾ فمعنى ﴿فَتَنَّٰهُ﴾ أي: اختبرناه. و﴿أَوَّابٌ﴾ قال قتادة: مطيع. وهذا التفسير أولى. قال ابن عباس وابن مسعود: ما زاد داود على أن قال للرجل: انزل عن امرأتك وأكفلنيها. فعاتبه الله على ذلك ونبهه عليه، وأنكر عليه شغله بالدنيا. وهذا هو الذي ينبغي أن يعوَّل عليه من أمره. وقد قيل خطبها على خطبته، وقيل بل أحب بقلبه أن يستشهد. وحكى السمرقندي أن ذنبه الذي استغفر منه قوله ﴿لَقَدْ ظَلَمَكَ﴾ فظلمه بقول خصمه. وقيل: بل لما خشيه على نفسه، وظن من الفتنة بما بسط له من الملك والدنيا. وإلى نفي ما أضيف في الأخبار إلى داود من ذلك ذهب أحمد بن نصر وأبو تمام، وغيرهما من المحققين. قال الداودي: ليس في قصة داود وأوريا خبر يثبت. ولا يظن بنبي محبة قتل مسلم. وقيل: إن الخصمين اللذين اختصما إليه رجلان في

نتاج غنم على ظاهر الآية. وقيل: بل لما خشي على نفسه وظن من الفتنة لما بسط له من الملك والدنيا. انتهى.

وقال ابن القيم في أواخر كتابه «الجواب الكافي» في مباحث العشق:

وقد أرشد ﷺ المتحابين إلى النكاح. كما في سنن ابن ماجه مرفوعًا: **«لَمْ يَرَ لِلْمُتَحَابَّيْنِ مِثْل النِّكَاحِ»**(١) ونكاحه لمعشوقه هو دواء العشق الذي جعله الله دواءه شرعًا وقدرًا. وبه تداوى نبي الله داود ﷺ ولم يرتكب نبي الله محرمًا. وإنما تزوج المرأة وضمها إلى نسائه لمحبته لها. وكانت توبته بحسب منزلته عند الله وعلو مرتبته. ولا يليق بنا المزيد على هذا. انتهى.

---

(١) في سنده ضعف.

وقال ابن العربي -كما نقل عنه القرطبي-:

وأما قولهم: إنها لما أعجبته أمر بتقديم زوجها للقتل في سبيل الله، فهذا باطلٌ قطعًا؛ فإن داود لم يكن ليريق دمه في غرض نفسه، وإنما كان من الأمر أن داود قال لبعض أصحابه: انزل لي عن أهلك وعزم عليه . . .

قلت (مصطفى): والذين يميلون إلى تصحيح أصل هذه القصة تتلخص حججهم في أمور:

أحدها: كثرة القائلين بمضمون هذه القصة من السلف.

الثاني: ما ورد عن بعض السلف من تفسير النعجة بالمرأة، ولذلك شواهد من لغة العرب.

الثالث: أن قوله تعالى: ﴿فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ﴾ وقوله تعالى: ﴿فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ﴾ يدل على أن شيئًا ما قد صدر من داود عليه السلام.

وثَمَّ سؤال ألا وهو هل يشرع لنا أن نسجد إذا قرأنا هذه الآية ﴿وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ﴾؟

فابتداء قد أخرج البخاري(١) من طريق مجاهدٍ قال: قُلْتُ لِابْنِ عَبَّاسٍ: أَنَسْجُدُ فِي «ص» فَقَرَأَ: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ﴾ [الأنعام: الآية ٨٤] حَتَّى أَتَى: ﴿فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾ [الأنعام: الآية ٩٠].

فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما: نَبِيُّكُمْ ﷺ مِمَّنْ أُمِرَ أَنْ يَقْتَدِيَ بِهِمْ.

وعند البخاري(٢) من طريق عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لَيْسَ «ص» مِنْ عَزَائِمِ السُّجُودِ، وَرَأَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَسْجُدُ فِيهَا.

وفي رواية للبخاري(٣) من طريق مجاهد قال:

(١) البخاري (حديث ٣٤٢١).

(٢) البخاري (حديث ٣٤٢٢).

(٣) البخاري (مع الفتح ٨/ ٥٤٤).

سألت ابن عباس: من أين سجدت؟ فقال: أو تقرأ: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيۡمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحۡيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلۡيَاسَۖ كُلّٞ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَٱلۡيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطٗاۚ وَكُلّٗا فَضَّلۡنَا عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٨٦﴾ وَمِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡ وَإِخۡوَٰنِهِمۡۖ وَٱجۡتَبَيۡنَٰهُمۡ وَهَدَيۡنَٰهُمۡ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿٨٧﴾ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهۡدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۚ وَلَوۡ أَشۡرَكُواْ لَحَبِطَ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿٨٨﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحُكۡمَ وَٱلنُّبُوَّةَۚ فَإِن يَكۡفُرۡ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدۡ وَكَّلۡنَا بِهَا قَوۡمٗا لَّيۡسُواْ بِهَا بِكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ﴾ [الأنعام: الآيات ٨٤-٩٠] فكان داود ممن أمر نبيكم ﷺ أن يقتدي به، فسجدها داود فسجدها رسول الله ﷺ.

ولمزيد إفادة في هذا الصدد، أقول وبالله التوفيق:

هذه مواطن قد ورد فيها سجود التلاوة، فمن ذلك:

سجدة الانشقاق:

أخرج البخاري ومسلم[١] من طريق أَبِي رَافِعٍ قَالَ: صَلَّيْتُ مَعَ أَبِي هُرَيْرَةَ الْعَتَمَةَ فَقَرَأَ: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ ۝١﴾ [الانشقاق: الآية ١] فَسَجَدَ، فَقُلْتُ لَهُ، فَقَالَ: سَجَدْتُ خَلْفَ أَبِي الْقَاسِمِ ﷺ فَلَا أَزَالُ أَسْجُدُ بِهَا حَتَّى أَلْقَاهُ.

وسجدة العلق:

ففي صحيح مسلم من حديث أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: سَجَدْنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ ۝١﴾ [الانشقاق: الآية ١]، و﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ﴾ [العلق: الآية ١][٢].

ومن ذلك سجدة النجم:

أخرج البخاري ومسلم[٣] من حديث ابن مسعود

---

(١) البخاري (مع الفتح ٢/ ٢٥٠) ومسلم (مع النووي ٥/ ٧٨).

(٢) مسلم (ص٤٠٦).

(٣) البخاري (مع الفتح ٢/ ٥٥١) ومسلم (مع النووي ٥/ ٧٤).

رضي الله عنه قال: قَرَأَ النَّبِيُّ ﷺ «النَّجْمَ» بِمَكَّةَ فَسَجَدَ فِيهَا، وَسَجَدَ مَنْ مَعَهُ غَيْرَ شَيْخٍ أَخَذَ كَفًّا مِنْ حَصًى - أَوْ تُرَابٍ - فَرَفَعَهُ إِلَى جَبْهَتِهِ وَقَالَ: يَكْفِينِي هَذَا فَرَأَيْتُهُ بَعْدَ ذَلِكَ قُتِلَ كَافِرًا.

ويجوز أن يترك السجود في النجم، ففي الصحيحين[1] من حديث زَيْدِ بْنِ ثَابِتٍ رضي الله عنه قَالَ: قَرَأْتُ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ وَالنَّجْمِ فَلَمْ يَسْجُدْ فِيهَا.

●هذا وقد نقل الطحاوي في «شرح معاني الآثار»[2] أن السجود المتفق عليه عشر سجدات، قال:

منهن في «الأعراف» وموضع السجود فيها منها قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ۩ ﴿٢٠٦﴾﴾ [الأعراف: الآية ٢٠٦].

ومنهن «الرعد» وموضع السجود عند قوله عز

(١) البخاري (مع الفتح ٢/ ٥٥٤) ومسلم (مع النووي ٥/ ٧٥).
(٢) «شرح معاني الآثار» (١/ ٣٥٩).

وجل: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْأَصَالِ ۩ ﴿١٥﴾﴾ [الرعد: الآية ١٥].

ومنهن «النحل» وموضع السجود منها عند قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ﴾ [النحل: الآية ٤٩] إلى قوله ﴿يُؤْمَرُونَ﴾ [النحل: الآية ٥٠].

ومنهن في سورة «بني إسرائيل» وموضع السجود منها عند قوله تعالى: ﴿يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا﴾ [الإسراء: الآية ١٠٧] إلى قوله ﴿خُشُوعًا﴾ [الإسراء: الآية ١٠٩].

ومنهن سورة «مريم» وموضع السجود منها عند قوله: ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾ [مريم: الآية ٥٨].

ومنهن سورة «الحج» فيها سجدة في أولها عند قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [الحج: الآية ١٨] إلى آخر الآية.

ومنهن سورة «الفرقان» وموضع السجود منها عند

قوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُوا۟ لِلرَّحْمَٰنِ﴾ [الفرقان: الآية ٦٠] إلى آخر الآية.

ومنهن سورة «النمل» فيها سجدة عند قوله تعالى: ﴿أَلَّا يَسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ﴾ [النّمل: الآية ٢٥] إلى آخر الآية.

ومنهن «الم تنزيل السجدة» فيها سجدة عند قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ [السّجدَة: الآية ١٥] إلى آخر الآية.

ومنهن «حم تنزيل من الرحمن الرحيم» وموضع السجود منها فيه اختلاف، فقال بعضهم: موضعه ﴿تَعْبُدُونَ﴾ [فصلت: الآية ٣٧] وقال بعضهم: موضعه ﴿فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ ۩ ﴿٣٨﴾﴾ [فُصّلَت: الآية ٣٨].

● ولنرجع إلى قصة داود عليه السلام فنقول وبالله التوفيق:

● أما قوله تعالى: ﴿فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ﴾ أي فعفونا عنه وصفحنا له عن أن نؤاخذه بخطيئته وذنبه ذلك.

● وقوله: ﴿وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ﴾ وإن له عندنا للقربى يوم القيامة، قال ذلك الطبري رحمه الله، وأورد قول قتادة في تفسير ﴿فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ﴾ قال: الذنب.

● أما قوله ﴿وَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾ أي: حسن مرجع ومنقلب، وحسن مصير يوم القيامة.

● **قلت (مصطفى)**: ومن هنا لا ينبغي أن يقنط أحدٌ من رحمة الله أبدًا، بل على المرء أن يُقدم توبة على الدوام، ويستغفر الله، ويكثر من الاستغفار ما دام حيًّا، ولا ييأس من روح الله فإنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون.

إن نبي الله الكليم موسى عليه السلام قتل نفسًا فقال: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَٱغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُۥٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦﴾﴾ [القصص: الآية ١٦] وكذا فلا ينبغي أن يغتر عبدٌ بعمل صالح عمله، ولا أن يقترف السيئات متكلًا

على سعة عفو الله ومغفرته، فالله غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب ذي الطول لا إله إلا هو إليه المصير.

وقد قال سبحانه: ﴿ نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ ﴿٥٠﴾ ﴾ [الحجر: الآيتان ٤٩، ٥٠].

● **ويبقى تساؤلٌ ألا وهو إذا لم تُعتمَد هذه القصة المشار إليها، فما وجه الفتنة التي قال الله عنها:** ﴿وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ﴾؟

● وما وجه الاستغفار وسجود التوبة الذي صدر منه؟ وما الذي غفره الله له؟

● فمن العلماء من أجاب على ذلك بما حاصله أن العلم بذلك موكول إلى الله عز وجل.

● ومنهم من قال: إنه استغفر لكونه أغلق الباب دون الناس حتى وصل الأمر بالخصوم إلى أن يتسوروا المحراب.

وهذا ليس فيه كبير مأخذٍ على نبي الله داود، ولا صغير مأخذٍ؛ إذ النفس لها حق كما أن للرعية حق، وقد جاء في الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**لَا يَقْضِيَنَّ حَكَمٌ بَيْنَ اثْنَيْنِ وَهُوَ غَضْبَانُ**»[١].

فكذا المُتعب المرهق من حق نفسه عليه عند القضاء أن يكون هادئ البال مستقر الحال لا يقضي وهو متعب مرهق.

● ومن العلماء من قال إن الذي صدر من داود عليه السلام أنه قضى لأحد الخصمين قبل أن يستمع إلى الآخر، ومن المعلوم أن القاضي يلزمه أن يستمع وجهة نظر الآخر، ورده على ما وُجِّه إليه من تُهمٍ.

● وأجاب بعضهم على ذلك بأن سكوت الخصم يُعدُّ إقرارًا منه لقول الآخر، فالله أعلم.

● ولنرجع إلى ما كنا بصدده ألا وهو ذكر نبي الله داود عليه السلام، فنقول وبالله التوفيق:

(١) البخاري (حديث ١٧٥٨) ومسلم (١٧١٧).

إن الله عز وجل قال: ﴿فَغَفَرْنَا لَهُ ذَٰلِكَ﴾ فأيًا كان هذا الذي صدر من نبي الله داود عليه السلام فقد غفره الله له، والحمد لله رب العالمين.

فمن ثَمَّ فلا يُنال أبدًا من نبي الله داود عليه السلام كما تفعل طوائف اليهود! ولا يُنال من نبي الله داود أبدًا كما يفعل القُصَّاص ويسترسلون في القصص، فنبي الله داود عليه السلام نبيٌّ كريم له عند الله زلفى وحسن مآب.

● وهنا نذكِّر بأمر من الأهمية بمكانٍ كريم، ألا وهو **أن الشخص لا يُعيَّر بذنبٍ تاب منه،** وخاصة إذا غفر الله له، دلَّ على ذلك ما أخرجه البخاري ومسلم[1] - واللفظ لمسلم- من طريق أبي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ: رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**احْتَجَّ آدَمُ وَمُوسَى عَلَيْهِمَا السَّلَام عِنْدَ رَبِّهِمَا، فَحَجَّ آدَمُ مُوسَى، قَالَ مُوسَى: أَنْتَ آدَمُ الَّذِي خَلَقَكَ اللَّهُ بِيَدِهِ، وَنَفَخَ فِيكَ مِنْ رُوحِهِ، وَأَسْجَدَ لَكَ مَلَائِكَتَهُ، وَأَسْكَنَكَ فِي جَنَّتِهِ، ثُمَّ أَهْبَطْتَ النَّاسَ بِخَطِيئَتِكَ**

(١) البخاري (مع الفتح ١١/٥٠٥) ومسلم (٢٦٥٢).

إِلَى الْأَرْضِ؟ فَقَالَ آدَمُ: أَنْتَ مُوسَى الَّذِي اصْطَفَاكَ اللَّهُ بِرِسَالَتِهِ وَبِكَلَامِهِ وَأَعْطَاكَ الْأَلْوَاحَ فِيهَا تِبْيَانُ كُلِّ شَيْءٍ، وَقَرَّبَكَ نَجِيًّا، فَبِكَمْ وَجَدْتَ اللَّهَ كَتَبَ التَّوْرَاةَ قَبْلَ أَنْ أُخْلَقَ؟ قَالَ مُوسَى بِأَرْبَعِينَ عَامًا، قَالَ آدَمُ: فَهَلْ وَجَدْتَ فِيهَا: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ﴾ [طه: الآية ١٢١]؟ قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: أَفَتَلُومُنِي عَلَى أَنْ عَمِلْتُ عَمَلًا كَتَبَهُ اللَّهُ عَلَيَّ أَنْ أَعْمَلَهُ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَنِي بِأَرْبَعِينَ سَنَةً؟ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: فَحَجَّ آدَمُ مُوسَى».

● وأورد في هذا الباب أيضًا قصة مجيء الخارجي إلى ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا وسؤاله عن عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، والخارجي يطمع أن يأخذ كلمةً من ابن عمر يُشين بها عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فانظر إلى هذا الحديث وتبين ما فيه، فإن قومًا من أهل الصلاح والفضل يغفر الله لهم، ولكن هذه المغفرة يستاء بها أهل الشر والفساد.

أخرج البخاري(١) من طريق عُثْمَان - هُوَ ابْنُ مَوْهَبٍ

---

(١) البخاري (حديث ٣٦٩٨).

- قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ مِصْرَ وَحَجَّ الْبَيْتَ، فَرَأَى قَوْمًا جُلُوسًا، فَقَالَ: مَنْ هَؤُلَاءِ الْقَوْمُ؟ فَقَالُوا: هَؤُلَاءِ قُرَيْشٌ، قَالَ: فَمَنِ الشَّيْخُ فِيهِمْ؟ قَالُوا: عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ، قَالَ: يَا ابْنَ عُمَرَ، إِنِّي سَائِلُكَ عَنْ شَيْءٍ فَحَدِّثْنِي عَنْهُ، هَلْ تَعْلَمُ أَنَّ عُثْمَانَ فَرَّ يَوْمَ أُحُدٍ؟ قَالَ: نَعَمْ، فَقَالَ: تَعْلَمُ أَنَّهُ تَغَيَّبَ عَنْ بَدْرٍ وَلَمْ يَشْهَدْ؟ قَالَ: نَعَمْ، قَالَ الرَّجُلُ: هَلْ تَعْلَمُ أَنَّهُ تَغَيَّبَ عَنْ بَيْعَةِ الرِّضْوَانِ فَلَمْ يَشْهَدْهَا؟ قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: اللَّهُ أَكْبَرُ!! قَالَ: ابْنُ عُمَرَ: تَعَالَ أُبَيِّنْ لَكَ، أَمَّا فِرَارُهُ يَوْمَ أُحُدٍ فَأَشْهَدُ أَنَّ اللَّهَ عَفَا عَنْهُ وَغَفَرَ لَهُ، وَأَمَّا تَغَيُّبُهُ عَنْ بَدْرٍ فَإِنَّهُ كَانَتْ تَحْتَهُ بِنْتُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَكَانَتْ مَرِيضَةً فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: **«إِنَّ لَكَ أَجْرَ رَجُلٍ مِمَّنْ شَهِدَ بَدْرًا وَسَهْمَهُ»**، وَأَمَّا تَغَيُّبُهُ عَنْ بَيْعَةِ الرِّضْوَانِ فَلَوْ كَانَ أَحَدٌ أَعَزَّ بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ عُثْمَانَ لَبَعَثَهُ مَكَانَهُ، فَبَعَثَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عُثْمَانَ وَكَانَتْ بَيْعَةُ الرِّضْوَانِ بَعْدَ مَا ذَهَبَ عُثْمَانُ إِلَى مَكَّةَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِيَدِهِ الْيُمْنَى: **«هَذِهِ يَدُ عُثْمَانَ»** فَضَرَبَ بِهَا

عَلَى يَدِهِ فَقَالَ: «**هَذِهِ لِعُثْمَانَ**». فَقَالَ لَهُ ابْنُ عُمَرَ: اذْهَبْ بِهَا الْآنَ مَعَكَ.

● ثمَّ أمرٌ من الله تبارك وتعالى، وتوجيهٌ لداود عليه السلام.

قال تعالى: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [ص: الآية ٢٦].

● فالذي جعلك خليفة هو الله، هو الذي مكنك من قتل جالوت!

● هو الذي آتاك الملك والحكمة!!

● هو الذي اصطفاك ف﴿ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [الحج: الآية ٧٥].

● هو الذي اجتباك ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِى مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ [آل عمران: الآية ١٧٩].

● هو الذي علمك مما يشاء!!

﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ

ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾﴾ [آل عِمرَان: الآية ٢٦].

فليذكر الحكام والملوك والوزراء والأمراء وذوو المناصب والوجاهات ذلك كله وليكن منهم على بالٍ وليقدموا له شكرًا.

● ثم قال تعالى آمرًا هذا النبي الكريم -وغيره له تبع-: ﴿فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ﴾ [ص: الآية ٢٦] والحق ما أنزله الله في كتابه وعلى ألسنة رسله عليهم الصلاة والسلام.

فهذا فرض واجب على كل خليفة وقاضٍ، ليس بفضلٍ ولا نافلة.

قال الله تعالى لنبيه محمد ﷺ: ﴿وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ ﴿٤٩﴾﴾ [المَائدة: الآية ٤٩].

وقال تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ

فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾﴾ [الجاثية: الآية ١٨].

إنه لحق على ولاة الأمر وكلّ من تقلد منصبًا أن يتقي الله في منصبه وفي رعاياه، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٤١﴾﴾ [الحج: الآية ٤١].

واجبٌ على الخليفة والحاكم أن ينتصر للمظلوم من الظالم، وأن يأخذ للضعيف حقه ممن بغى عليه.

واجب على الخليفة أن ينهى عن الفساد في الأرض ويأخذ على أيدي الشراذم والأراذل العابثين بالأعراض المغتصبين للأموال، سفكة الدماء، قطاع الطرق، ومروجي المخدرات والمسكرات.

واجب عليه أن يقيم الصلاة، وأن يؤتي الزكاة، ويحمل الناس على طاعة أمر الله ورسوله ﷺ، فإن الله يزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن.

واجب عليه أن يطلب العون من الله، فالله المستعان على كل حال.

● ثم يُحذر الله نبيه داود عليه السلام فيقول له: ﴿وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [ص: الآية ٢٦] نعم اتباع الهوى - الذي منه ميلُ النفس إلى ما تشتهيه، مع الإعراض عن كتاب الله - يضل عن سبيل الله، أيًّا كان هذا المتبع لهواه، وإن كان من أذكى الناس وأعقل الناس وخير الناس!!

وماذا بعد الضلال عن سبيل الله؟؟ ماذا بعد ترك الحكم بين الناس بالحق؟!

بعده والعياذ بالله العذاب الشديد المؤلم الموجع ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ﴾ [ص: الآية ٢٦].

نعم لهم عذاب شديد بما تركوا العمل ليوم القيامة.

فعياذًا بالله من الضلال عن سبيل الله! وعياذًا بالله من العذاب الشديد يوم الحساب!

● ثم يبين الله سبحانه وتعالى أنه ما خلق الخلق عبثًا ولا لهوًا ولا باطلًا، إنما خلقهم لحكمة أرادها، خلقهم وسيجازي المحسنين المطيعين على إحسانهم وطاعتهم وسيعاقب المسيئين المتمردين على تمردهم وعتوهم وفسادهم.

﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿٢٧﴾﴾ [ص: الآيات ٢٧] .

وأوضح الله سبحانه وتعالى أنه لا يستوي المصلح مع المفسد، ولا العادل مع الظالم الجائر، وأيضًا فلا يستوي المسلم مع المجرم، قال تعالى: ﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾﴾ [ص: الآية ٢٨] .

كلا، فلا يستوي تقي وفاجر، ولا مؤمن وفاسق ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لَّا يَسْتَوُۥنَ ﴿١٨﴾﴾ [السَّجدَة: الآية ١٨]، ﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [القلم: الآيتان ٣٥، ٣٦] .

ألا فليتدبر هذا الكتاب العزيز، وليتلى وليعمل بما فيه، فلهذا أُنزل، قال تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾﴾ [ص: الآية ٢٩] جعلنا الله وقارئ هذه الرسالة من أولي الألباب، أصحاب العقول النيِّرة، آمين، اللهم آمين.



آيات من سورة الأنبياء
فيها ذكر نبي الله داود عليه السلام

قال تعالى: ﴿وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ ﴿٧٨﴾ فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ ۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ ۚ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿٧٩﴾ وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ ۖ فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ ﴿٨٠﴾﴾
[الأنبياء: الآيات ٧٨-٨٠]

يُذكرنا الله سبحانه وتعالى بقصةٍ وقضية حدثت لهذا النبي الكريم ﷺ نخرج منها - كما هو الحال في عموم القصص القرآني - بفوائد وعبر، فيقول تعالى: ﴿وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ﴾ أي واذكر داود وسليمان ﴿إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ﴾ أي يحكمان في قضية تتعلق بالحرث، ومن العلماء من قال: إن هذا الحرث كان

زرعًا، ومنهم من قال: كان عنبًا، وكما قال الطبري: وغيرُ ضائرِ الجهلُ بأي ذلك كان.

الحاصل: أن هذا الحرث ﴿نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ﴾ أي دخلته ليلًا فرعت فيه بلا راعٍ فأفسدته(١)، فتحاكم القوم إلى داود عليه السلام فقضى عليه السلام بقضاء حاصله - عند أكثر المفسرين - أنه أعطى الغنم لأصحاب الحرث لكونها تعَّدت على الحرث فأفسدته، فخرجوا من عند هذا النبي الكريم فمرّوا بنبي الله سليمان عليه السلام، فسألهم عن قضاء والده الذي قضى، فرجع بهم سليمان عليه السلام إلى والده، والله مطلعٌ وشاهدٌ على كل هذا الذي يحدث، لا يخفى عليه منه شيءٌ، كما قال تعالى: ﴿وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ﴾، وكذا فإن ربنا سبحانه وتعالى يطلّع على كل قضيةٍ وعلى كل قضاءٍ، بل لا يخفى عليه شيءٌ في الأرض ولا في السماء، فهو

(١) والنفش هو الرعي ليلًا بلا راع، والهمل: هو الرعي نهارًا بلا راع.

سبحانه يسمع ويرى، يرى كل شيء ويسمع كل شيء، يرى ظُلم الظالمين وقضاء كلٍّ من قضى، ولا يخفى عليه أمر المظلومين، ألا فليستأنس كل مظلوم بأن الله يطلع عليه ويرى حاله وما وصل إليه.

وكما قال تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾ ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٢١٩﴾﴾ [الشعراء: الآيات:٢١٧- ٢١٩] فكل قضيةٍ وكل موقف وكلُّ مشهد يشهده الله تبارك وتعالى.

ولنرجع إلى القصة فنقول: إن نبي الله سليمان عليه السلام ذكر لوالده أن القضاء غير الذي قضى فسأله والده عن وجهة القضاء التي يراها، والتي أفهمه الله إياها، كما قال تعالى: ﴿فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ﴾.

وهكذا كل صاحب فهمٍ فهمه من الله، وعلمه من الله وذكاؤه من الله، فالتوفيق دائمًا بالله، والهداية دائمًا من الله.

الشاهد أن سليمان عليه السلام - على ما ذكره جمهور

المفسرين - أفاده بأن يأخذ أصحاب الحرث غنمَ القوم يستمتعون بها وبألبانها [١] وبأصوافها ونتاجها إلى أن يقوم أصحاب الغنم بإصلاح الحرث وإعادته كما كان فحينئذ يأخذون غنمهم ويردون إلى أصحاب الحرث حرثهم، فرضي داود هذا القضاء الحسن من ولده سليمان عليه السلام

وها هي بعض أقوال العلماء في ذلك، مع بعض الآثار. مع ملاحظة أنه لم يثبت لدينا في هذا الباب خبرٌ عن رسول ﷺ:

أما الآثار: فأخرج الطبري [٢] رحمه الله من طريق

---

(١) وقد قال قوم: إن القضاء الذي قضاه سليمان كان يتمثل في أنهم يقوِّمون الحرث الذي تلف ويستمتع أصحاب الحرث من الغنم بقيمة ما أتلفته الغنم، وهذا قريب أيضًا من القضاء الأول.

(٢) الطبري (أثر ٢٤٦٩٣) وسنده ضعيف، فيه أشعث بن سوار وهو إلى الضعف أقرب، وفيه عنعنة أبي إسحاق وهو مدلس.

المحاربي عن أشعث عن أبي إسحاق عن مرة عن ابن مسعود في قوله: ﴿وَدَاوُۥدَ وَسُلَيۡمَٰنَ إِذۡ يَحۡكُمَانِ فِي ٱلۡحَرۡثِ إِذۡ نَفَشَتۡ فِيهِ غَنَمُ ٱلۡقَوۡمِ﴾ قال: كرم قد أنبت عناقيده فأفسدته، قال: فقضى داود بالغنم لصاحب الكرم، فقال سليمان غير هذا يا نبي الله، قال: وما ذاك؟ قال: يدفع الكرم إلى صاحب الغنم فيقوم عليه حتى يعود كما كان، وتُدفع الغنم إلى صاحب الكرم فيصيب منها، حتى إذا كان الكرم كما كان دُفعت إلى الكرم صاحبه، ودَفعت الغنم إلى صاحبها، فذلك قوله: ﴿فَفَهَّمۡنَٰهَا سُلَيۡمَٰنَۚ﴾ [الأنبياء: الآية ٧٩].

وأخرج (١) بإسنادٍ ضعيفٍ جدًّا عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله: ﴿وَدَاوُۥدَ وَسُلَيۡمَٰنَ إِذۡ يَحۡكُمَانِ فِي ٱلۡحَرۡثِ﴾ إلى قوله: ﴿وَكُنَّا لِحُكۡمِهِمۡ شَٰهِدِينَ﴾ يقول: كنا لِما حكما

(١) الطبري (أثر ٢٤٦٩٤) وفيه سلسلة العوفيين وهم ضعفاء. وثم أسانيد أُخر إلى ابن عباس بمتون قريبة، وفي سندها ضعفٌ أيضًا.

شاهدين. وذلك أن رجلين دخلا على داود، أحدهما صاحب حرث، والآخر صاحب غنم، فقال صاحب الحرث: إن هذا أرسل غنمه في حرثي، فلم يُبق من حرثي شيئًا، فقال له داود: اذهب فإن الغنم كلها لك، فقضى بذلك داود، ومرّ صاحب الغنم بسليمان، فأخبره بالذي قضى به داود، فدخل سليمان على داود فقال: يا نبي الله إن القضاء سوى الذي قضيت، فقال: كيف؟ قال سليمان: إن الحرث لا يخفى على صاحبه ما يخرج منه في كل عام، فله من صاحب الغنم أن يبيع من أولادها وأصوافها وأشعارها حتى يستوفي ثمن الحرث، فإن الغنم لها نسل في كلّ عام، فقال داود: قد أصبت، القضاءُ كما قضيت. ففهَّمها الله سليمان.

●وأخرج الطبري[1] بسندٍ صحيح عن مرة في قوله ﴿إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ﴾ قال: كان الحرث نبتًا، فنفشت فيه ليلًا، فاختصموا فيه إلى داود، فقضى

(١) الطبري (٢٤٦٩٩).

بالغنم لأصحاب الحرث، فمروا على سليمان، فذكروا ذلك له، فقال: لا، تُدفع الغنم فيصيبون منها، يعني أصحاب الحرث، ويقوم هؤلاء على حرثهم، فإذا كان كما كان ردوا عليهم، فنزلت: ﴿فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ﴾.

● وبسند حسن[1] عن قتادة قوله: ﴿وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ﴾ ... الآية، النفش بالليل، والهمل بالنهار، وذكر لنا أن غنم القوم وقعت في زرع ليلًا، فرُفع ذلك إلى داود، فقضى بالغنم لأصحاب الزرع، فقال سليمان: ليس كذلك، ولكن له نسلها ورَسْلها وعوارضها وجُزازها، حتى إذا كان من العام المقبل كهيئة يوم أكل، دفعت الغنم إلى ربها، وقبض صاحب الزرع زرعه، فقال الله: ﴿فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ﴾.

● وبسند صحيح[2] عن ابن زيد في قوله تعالى: ﴿وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ

(١) الطبري (٢٤٧٠٤).

(٢) الطبري (أثر ٢٤٧٠٧).

ٱلْقَوْمِ﴾ . . . الآيتين، قال: انفلت غنم رجل على حرث رجل فأكلته، فجاء إلى داود، فقضى فيها بالغنم لصاحب الحرث بما أكلت، وكأنه رأى أنه وجه ذلك، فمرّوا بسليمان، فقال: ما قضى بينكم نبي الله؟ فأخبروه، فقال: ألا أقضي بينكما عسى أن ترضيا به؟ فقالا: نعم، فقال: أما أنت يا صاحب الحرث، فخذ غنم هذا الرجل فكن فيها كما كان صاحبها، أصب من لبنها وعارضتها وكذا وكذا ما كان يصيب، واحرث أنت يا صاحب الغنم حرث هذا الرجل، حتى إذا كان حرثه مثله ليلة نفشت فيه غنمك فأعطه حرثه وخذ غنمك، فذلك قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَدَاوُودَ وَسُلَيْمَٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ﴾ وقرأ حتى بلغ قوله ﴿وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾.

● وقد ورد في هذا الباب ما به يستبين فهم سليمان عليه السلام في القضاء، فمن ذلك ما أخرجه البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ :

«كَانَتِ امْرَأَتَانِ مَعَهُمَا ابْنَاهُمَا، جَاءَ الذِّئْبُ فَذَهَبَ بِابْنِ إِحْدَاهُمَا، فَقَالَتْ صَاحِبَتُهَا: إِنَّمَا ذَهَبَ بِابْنِكِ، وَقَالَتِ الْأُخْرَى: إِنَّمَا ذَهَبَ بِابْنِكِ، فَتَحَاكَمَتَا إِلَى دَاوُدَ فَقَضَى بِهِ لِلْكُبْرَى، فَخَرَجَتَا عَلَى سُلَيْمَانَ بْنِ دَاوُدَ فَأَخْبَرَتَاهُ، فَقَالَ: ائْتُونِي بِالسِّكِّينِ أَشُقُّهُ بَيْنَهُمَا، فَقَالَتِ الصُّغْرَى: لَا تَفْعَلْ يَرْحَمُكَ اللَّهُ، هُوَ ابْنُهَا، فَقَضَى بِهِ لِلصُّغْرَى»[1] .

● وأورد ابن كثير[2] رحمه الله قصة مطولة في هذا الباب، وسندها ضعيف عن ابن عباس رضي الله عنهما.

ملخصها: أن امرأة حسناء في زمان بني إسرائيل راودها عن نفسها أربعة من رؤسائهم، فامتنعت على كل منهم، فاتفقوا فيما بينهم عليها، فشهدوا عليها عند داود عليه السلام أنها مكنت من نفسها كلبًا لها قد عودته ذلك منها، فأمر برجمها، فلما كان عشية ذلك [اليوم] جلس

(١) البخاري (حديث ٣٤٢٧)، ومسلم (٢/ ١٧٢٠).

(٢) في سندها الوليد بن مسلم مدلس وقد عنعن، وسعيد بن بشير وهو ضعيف.

سليمان، واجتمع معه وِلْدان مثله، فانتصب حاكمًا، وتزيا أربعة منهم بزي أولئك، وآخر بزي المرأة، وشهدوا عليها بأنها مكنت من نفسها كلبًا، فقال سليمان: فرقوا بينهم [فسأل أولهم] ما كان لون الكلب؟ فقال: أسود. فعزله، واستدعى [الآخر] فسأله عن لونه، فقال: أحمر. وقال الآخر: [أغبش]. وقال الآخر: أبيض. فأمر بقتلهم فحكي ذلك لداود عليه السلام، فاستدعى من فوره بأولئك الأربعة، فسألهم متفرقين عن لون ذلك الكلب، فاختلفوا عليه فأمر بقتلهم.

● أما قوله تعالى: ﴿وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ فثناءٌ على داود عليه السلام أيضًا، وهذا من دفاع الله سبحانه وتعالى عن أنبيائه عليهم السلام، فحتى لا يُظن بداود عليه السلام أنه بعيدٌ عن العلم بالقضاء أثنى الله عليه بأنه أُوتي حُكمًا وأُوتي علمًا، ولكن كما هو معلوم فقد يُصيب الشخص في مسألةٍ، ويصيبُ غيره في مسألة أُخرى، وفوق كل ذي علمٍ عليم.

● ونحو هذا الثناء قوله تعالى في شأن نبيه يعقوب لما أوصى أولاده أن يدخلوا من أبواب متفرقة، قال تعالى ﴿وَلَمَّا دَخَلُوا۟ مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنِى عَنْهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِى نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَىٰهَا﴾ [يُوسُف: الآية ٦٨] ثم أثنى الله عليه بقوله ﴿وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَٰهُ﴾ [يُوسُف: الآية ٦٨].

● ثم يبين الله سبحانه وتعالى بعض نعمه ومننه على داودعليه السلام ، وهذا يبين أمرً ويجليه،ألا وهو أن الشخص قد يُنعم عليه في باب ويبرع فيه، ويبرع غيره في أبواب أخر،وينعم عليه بنعم أُخر، فقد يكون الشخص وسيمًا جميلًا، ولكنه فقير لم يؤت المال.

● وقد يكون الشخص ذكيًا نبيهًا يفهم جيدًا،ولكنه مبتلى بمرض.

● وقد تكون المرأة جميلة حسناء، ولكنها ليست بذات حسب.

● وقد تكون ذات حسب ولكنها ليست بذات مال.

●وأصحاب نبينا ﷺ منهم من كان مغوارًا شجاعًا عالمًا بفنون القتال كحمزة، وعلي، وخالد رضي الله عنهم.

●ومنهم من كان عالمًا بالحديث حافظًا له كأبي هريرة، وابن عمرو، وعائشة، رضي الله عنهم!!

●ومنهم من كان عالمًا بسياسية الناس كعمر رضي الله عنه!!

●ومنهم من كان عالمًا بالقضاء كعلي رضي الله عنه!!

●ومنهم من رُزِق الحياء أيما حياءٍ كعثمان رضي الله عنه.

●ومنهم من لو وُزنت الجبال بإيمانه لوزنها إيمانهُ، وهو الصديق أبو بكر رضي الله عنه.

فمن ثم فلا مانع أبدًا أن يؤتى شخص علمًا لم يؤته آخر قد رزق بنعم أُخر، فمن ثم ذكر الله بعض مننه على داود عليه السلام، فقال سبحانه ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ﴾، فكان عليه الصلاة والسلام إذا قرأ سبحت معه الجبال والطيرُ كذلك، ومن العلماء من

قال: إن ذلك لينشط في التسبيح ويشتاق إليه[١].

● **أما قوله تعالى** ﴿وَكُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ أي وكنا قد قضينا ذلك وقدرناه، قدرنا في اللوح المحفوظ، في أم الكتاب أن الجبال والطير ستسبح مع داود عليه السلام **وقال بعض العلماء:** إن قوله تعالى ﴿وَكُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ أي قادرين على جعلها تُسبح مع داود عليه السلام.

● **ثم ذكر الله منة أخرى على داود** عليه السلام فقال: ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ﴾ أي لمصالحكم، واللبوس السلاح عمومًا، ويشمل السيوف والدروع والرِّماح، وغير ذلك، لكن المراد هنا -عند الأكثرين- الدروع، فقد علَّم الله سبحانه نبيه داود عليه السلام صنعة الدروع لتقي الناس سهام الأعداء، تلكم الدروع التي نشبهها في زماننا بالقمصان الواقية التي يرتديها الملوك والرؤساء لاتقاء طلقات الرصاص، ومن نعم الله سبحانه على هذا النبي الكريم أنه ألان له الحديد، فكان يشكله

(١) ذكر ذلك السمعاني في «تفسيره».

كيف يشاء ﷺ.

● أما قوله تعالى ﴿لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ﴾ [الأنبياء: الآية ٨٠] أي لتمنعكم وتحفظكم من بطش عدوكم، وتحفظكم في حروبكم، ومن سهام عدوكم، ونبال عدوكم.

● ثم قال تعالى: ﴿فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ﴾ [الأنبياء: الآية ٨٠] أي: فهل تقدمون شكرًا يا آل داود على هذه النعم؟ وأيضًا هل تقدمون شكرًا يا معشر المسلمين على أن علمكم الله سبحانه وتعالى ما تتقون بها سهام عدوكم ونبال عدوكم؟

● وأيضًا المعنى: اشكروا الله يا آل داود على نعمه هذه عليكم، واشكروا الله أيها الناس على نعمة الله عليكم.

● ويتضح مما سبق أن الذي علَّم داود هو الله، وكذا كلُّ صاحبِ علمٍ عِلْمُهُ من الله، وكلُّ صاحبِ صنعةٍ فتعلمه إياها من الله، وذلك حتى لا يفخر أحدٌ على

أحدٍ، ولا يتعالى ولايتعاظم أحدٌ على أحد، فالفضل لله وحده، فالحمد لله رب العالمين.

هذا ويستفاد من هذه القصة أن القاضي إذا اجتهد في الحكم وأخطأ **فلا إثم عليه**.

روي عن الحسن البصري رحمه الله أنه قال «لَوْلا هذه الآية لرأيت القضاة هلكوا، ولكنه تعالى أثنى على سليمان بصوابه، وعذر داود باجتهاده».

●وأورد الحافظ ابن كثير بسندٍ صحيح عن حميد: أن إياس بن معاوية لما اسْتُقْضِي[1] [أتاه] الحسن فبكى، [فقال]: ما يبكيك؟ قال: يا أبا سعيد، بلغني أن القضاة: رجل اجتهد فأخطأ فهو في النار، ورجل مال به الهوى فهو في النار، ورجل اجتهد فأصاب فهو في الجنة. فقال الحسن البصري: إن فيما قص الله من نبأ داود وسليمان عليهما السلام والأنبياء حُكما يرد قول

(١) استقضي: أي عُين قاضيًا.

هؤلاء الناس عن قولهم، قال الله تعالى: ﴿وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ ﴿٧٨﴾﴾ [الأنبياء: الآية ٧٨]، فأثنى الله على سليمان ولم يذم داود.

ثمّ قال -يعني الحسن-: إن الله اتخذ على الحكماء ثلاثًا: لا يشتروا به ثمنًا قليلًا، ولا يتبعوا فيه الهوى، ولا يخشوا فيه أحدًا، ثم تلا: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ﴾ [ص: الآية ٢٦]، وقال: ﴿فَلَا تَخْشَوُا۟ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ [المائدة: الآية ٤٤].

● وقد أخرج البخاري[1] من حديث عمرو بن العاص رضي الله عنهما أنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«إِذَا حَكَمَ الْحَاكِمُ فَاجْتَهَدَ ثُمَّ أَصَابَ فَلَهُ أَجْرَانِ، وَإِذَا حَكَمَ فَاجْتَهَدَ ثُمَّ أَخْطَأَ فَلَهُ أَجْرٌ»**.

● ويؤخذ من هذه القصة -قصة سليمان مع داود

(١) البخاري (حديث ٧٣٥٢)، ومسلم (١٧١٦).

عليه السلام - جواز الاستئناف في الأحكام، والرجوع إلى من هو أعلم.

● دلَّ على ذلك ما أخرجه البخاري[١] من حديث أبي هريرة رضي الله عنه ففيه: أن النبي ﷺ قال: «كَانَتِ امْرَأَتَانِ مَعَهُمَا ابْنَاهُمَا، جَاءَ الذِّئْبُ فَذَهَبَ بِابْنِ إِحْدَاهُمَا، فَقَالَتْ صَاحِبَتُهَا: إِنَّمَا ذَهَبَ بِابْنِكِ، وَقَالَتِ الأُخْرَى: إِنَّمَا ذَهَبَ بِابْنِكِ، فَتَحَاكَمَتَا إِلَى دَاوُدَ فَقَضَى بِهِ لِلْكُبْرَى، فَخَرَجَتَا عَلَى سُلَيْمَانَ بْنِ دَاوُدَ، فَأَخْبَرَتَاهُ، فَقَالَ: ائْتُونِي بِالسِّكِّينِ أَشُقُّهُ بَيْنَهُمَا، فَقَالَتِ الصُّغْرَى: لَا تَفْعَلْ يَرْحَمُكَ اللَّهُ، هُوَ ابْنُهَا، فَقَضَى بِهِ لِلصُّغْرَى». قال أبو هريرة: والله إن سمعت بالسكين إلا يومئذٍ، وما كنا نقول إلا المدية.

● كما دلت على ذلك أيضًا قصة العسيف، ففي الحديث الذي أخرجه البخاري ومسلم[٢] من حديث أبي هريرة، وزيد بن خالد الجهني رضي الله عنهما أنهما قالا: إن

(١) البخاري (حديث ٣٤٢٧).

(٢) أخرجه البخاري (٦٨٢٧، ٦٨٢٨)، ومسلم (١٦٩٧، ١٦٩٨).

رجلًا من الأعراب أتى رسول الله ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَنْشُدُكَ اللَّهَ إِلَّا قَضَيْتَ لِي بِكِتَابِ اللَّهِ[١] فَقَالَ الْخَصْمُ الْآخَرُ وَهُوَ أَفْقَهُ مِنْهُ[٢]: نَعَمْ فَاقْضِ بَيْنَنَا بِكِتَابِ اللَّهِ وَأْذَنْ لِي، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «قُلْ» قَالَ: إِنَّ ابْنِي كَانَ عَسِيفًا[٣] عَلَى هَذَا[٤] فَزَنَى بِامْرَأَتِهِ، وَإِنِّي أُخْبِرْتُ

(١) (أنشدك الله إلا قضيت لي بكتاب الله) معنى أنشدك: أسألك رافعًا نشيدي، وهو صوتي. وقوله: بكتاب الله: أي بما تضمنه كتاب الله.

(٢) (وهو أفقه منه) قال العلماء: يجوز أنه أراد أنه بالإضافة أكثر فقهًا منه. ويحتمل أن المراد: أفقه منه في القضية؛ لوصفه إياها على وجهها.
ويحتمل أنه لأدبه واستئذانه في الكلام وحذره من الوقوع في النهي الوارد في قوله تعالى: ﴿لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ [الحُجرَات: الآية ١]. بخلاف الأول في قوله: أنشدك الله؛ فإنه من جفاء الأعراب.

(٣) (عسيفًا) العسيف هو الأجير، وجمعه عسفاء، كأجير وأجراء، وفقيه وفقهاء.

(٤) (على هذا) يشير إلى خصمه، وهو زوج مزنية ابنه، وكان =

أَنَّ عَلَى ابْنِي الرَّجْمَ فَافْتَدَيْتُ [١] مِنْهُ بِمِائَةِ شَاةٍ وَوَلِيدَةٍ، فَسَأَلْتُ أَهْلَ الْعِلْمِ فَأَخْبَرُونِي أَنَّمَا عَلَى ابْنِي جَلْدُ مِائَةٍ وَتَغْرِيبُ عَامٍ، وَأَنَّ عَلَى امْرَأَةِ هَذَا الرَّجْمَ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ **«وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَأَقْضِيَنَّ بَيْنَكُمَا بِكِتَابِ اللَّهِ: الْوَلِيدَةُ وَالْغَنَمُ رَدٌّ [٢]، وَعَلَى ابْنِكَ جَلْدُ مِائَةٍ وَتَغْرِيبُ عَامٍ، واغْدُ يَا أُنَيْسُ [٣] إِلَى امْرَأَةِ هَذَا فَإِنِ**

= الرجل استخدمه فيما تحتاج إليه امرأته من الأمور، فكان ذلك سببًا لما وقع له معها.

(١) (فافتديت) أي أنفذت ابني منه بفداء مائة شاة ووليدة، أي جارية، وكأنه زعم أن الرجم حق لزوج المزني بها، فأعطاه ما أعطاه.

(٢) (الوليدة والغنم رد) أي مردودة. ومعناه: يجب ردها إليك. وفي هذا أن الصلح الفاسد يرد، وأن أخذ المال فيه باطل يجب رده، وأن الحدود لا تقبل الفداء.

(٣) (واغد يا أنيس) قال الإمام النووي رضي الله تعالى عنه: «واعلم أن بعث أنيس محمول عند العلماء من أصحابنا وغيرهم على إعلام المرأة بأن هذا الرجل قذفها بابنه، فيعرفها بأن لها عنده =

اعْتَرَفَتْ فَارْجُمْهَا».

قَالَ: فَغَدَا عَلَيْهَا فَاعْتَرَفَتْ، فَأَمَرَ بِهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَرُجِمَتْ.

وثمَّ حكم فقهي آخر يستفاد من هذه القصة، وهو الذي عليه جمهور العلماء من أن الماشية إذا دخلت حرث قوم فأفسدته ليلًا كان صاحبها ضامنًا لما أتلفته، أما إذا دخلته نهارًا فلا شيء عليها إنما على أصحاب الحرث أن يحرسوا زرعهم.

وقد ورد في هذا الباب حديث أعلَّه بعض العلماء إلا أن الجمهور على العمل بما تضمنه، ألا وهو ما أورده

= حد القذف فتطالب به أو تعفو عنه، إلا أن تعترف بالزنى فلا يجب عليه حد القذف، بل يجب عليها حد الزنى، وهو الرجم؛ لأنها كانت محصنة، فذهب إليها أنيس، فاعترفت بالزنى، فأمر النبي ﷺ برجمها، فرجمت. ولابد من هذا التأويل؛ لأن ظاهره أنه بُعث لإقامة حد الزنى. وهذا غير مراد؛ لأن حد الزنى لا يحتاط له بالتجسس والتفتيش عنه، بل لو أقر به الزاني استحب أن يلقن الرجوع». نقلًا عن محمد فؤاد رحمه الله.

الحافظ ابن كثير، وأخرجه بعض أصحاب السنن من حديث حرام بن مُحيصة «أن ناقة البراء بن عازب دخلت حائطاً[١] فأفسدت فيه، فقضى رسول الله ﷺ على أهل الحوائط حفظها بالنهار، وما أفسدت المواشي بالليل ضامن على أهلها».

(١) الحائط: البستان.

نعمة الولد الصالح

ومن نعم الله على هذا النبي الكريم داود عليه السلام أن رزقه بولدٍ صالح ذو فهم ونظرٍ واستدلال وبصر. قال تعالى ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُودَ سُلَيْمَانَ ۚ نِعْمَ الْعَبْدُ ۖ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴿٣٠﴾﴾ [ص: الآية ٣٠].

● وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا﴾ [النمل: الآية ١٥].

ومما لا شك فيه أن الرجل ينتفع بولده الصالح في الدنيا وبعد الممات.

ومن ثمَّ فإن عباد الرحمن يقولون ﴿رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٤﴾﴾ [الفرقان: الآية ٧٤].

● وقد قال رسول الله ﷺ **«إِذَا مَاتَ الْإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَنْهُ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثَةٍ: إِلَّا مِنْ صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ، أَوْ عِلْمٍ**

يُنْتَفَعُ بِهِ، أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ...»[١] .

● وعند أحمد في «المسند»[٢] بسند حسن عن رسول الله ﷺ قال: «**إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ لَيَرْفَعُ الدَّرَجَةَ لِلْعَبْدِ الصَّالِحِ فِي الْجَنَّةِ فَيَقُولُ: يَا رَبِّ أَنَّى لِي هَذِهِ؟ فَيَقُولُ: بِاسْتِغْفَارِ وَلَدِكَ لَكَ**» .

نعمة عظيمة من الله أن يرزق الشخص ولدًا صالحًا تُسخر له الريح والجن والأنس، والطير، وتعمل له الشياطين ما يشاء من محاريب وتماثيل وجفان كالجواب وقدور راسيات.

ثم مع ذلك كله يكون سببًا في رفعة درجاته في الآخرة.

---

(١) مسلم (حديث ١٦٣١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعًا.

(٢) أحمد في «المسند» (٢/٥٠٩).

آياتٌ من سورة سبأ
ومُجمل نعم الله على هذا النبي الكريم

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا ۖ يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ ۖ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ﴿١٠﴾ أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ[1] ۖ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١﴾﴾ [سبأ: الآيتان ١٠، ١١].

يذكر الله سبحانه وتعالى بعض نعمه على هذا النبي الكريم داود عليه السلام، فمن ذلك:

- أن جعله الله نبيًّا كريمًا.
- ومن ذلك تسخير الجبال معه تسبح بتسبيحه، وتُرجِع بترجيعه، وكذلك الطيور ﴿يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ﴾.

---

(١) السرد: المسامير في الحلق، أما السابغات: فهي الدروع الكوامل الطوال الواسعة.

● وكذلك إلانة الحديد له، فكما قال بعض العلماء كان لا يحتاج إلى أن يُدخل الحديد نارًا، ولا أن يطرقه بمطرقةٍ، بل سهله الله عليه ولينه الله له، كالخيوط، وقيل كالطين، والله على كل شيء قدير، قادرٌ ربنا على أن يجعل الصعب سهلًا، والحديد لينًا، والنار بردًا وسلامًا. قال تعالى: ﴿وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ﴾.

● وكذا علمه الله سبحانه وتعالى - والله خلق كل صانع وصنعته- صنعة الدروع السابغات. قال تعالى ﴿أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ﴾.

وقال تعالى: ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ﴾ [الأنبياء: الآية ٨٠].

وعلمه الله الدِّقة في هذه الصنعة، ومنه نستفيد الدقة في الأعمال، قال تعالى: ﴿وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ﴾ أي: اجعل الثقب على قدر المسمار.

● ومن نعم الله على هذا النبي الكريم أن مكنه من قتل جالوت، ثم إن الله سبحانه وتعالى آتاه الملك

والحكمة وعلمه مما يشاء، آتاه الملك وجعله خليفة، كما قال سبحانه ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [ص: الآية ٢٦].

● وجعل ملكه قويًا، وجعله مهابًا، كما قال تعالى ﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ﴾ [ص: الآية ٢٠].

● وآتاه الحكمة كما قال ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ﴾ [ص: الآية ٢٠].

● ﴿وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ﴾ [البقرة: الآية ٢٥١]، صناعة الدروع وغيرها، قال تعالى ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥﴾﴾ [النمل: الآية ١٥].

● وآتاه زبورًا، وهو الكتاب الذي أنزله الله عليه، قال تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا﴾ [النساء: الآية ١٦٣].

● وكذا آتاه الله سبحانه وتعالى صوتًا حسنًا عظيمًا.

● ومن نعم الله سبحانه وتعالى على هذا النبي

الكريم أن رزقه ولدًا صالحًا، قال تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيْمَٰنَ ۚ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٣٠﴾﴾ [ص: الآية ٣٠].

• ومن نعمه عليه أيضًا أن منَّ عليه بالتوبة والمغفرة، وجعله من المقربين، قال تعالى: ﴿فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ ۖ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٢٥﴾﴾ [ص: الآية ٢٥].

• ثم إن الله سبحانه وتعالى بعد أن ذكر بعض منته على داود عليه السلام حثه على العمل الصالح وأمره به، فحتى لا يشغل بعمل السابغات، الدروع الواقيات، قال الله تعالى: ﴿وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ﴾ [المؤمنون: الآية ٥١] فحثه الله على العمل الصالح عمومًا، وحثه على الشكر خصوصًا بقوله تعالى ﴿ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ۚ﴾.

وذلك حتى لا ينسى ذكر الله في خضم العمل في الحياة الدنيا.

وماذا عن عُمر هذا النبي الكريم
وماذا عن موته؟

ورد عن رسول الله ﷺ بإسناد صحيح[١] من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : «**لما خلق الله آدم ونفخ فيه الروح عطس، فقال الحمد لله، فحمد الله بإذن الله، فقال له ربه: يرحمك ربك يا آدم، اذهب إلى أولئك الملائكة -إلى ملإ منهم جلوس- فسلِّم عليهم فقال: السلام عليكم، فقالوا: وعليك السلام ورحمة الله، ثم رجع إلى ربه، فقال: هذه تحيتك وتحية بَنِيكَ بينهم، وقال الله جل وعلا -ويداه مقبوضتان- اختر أيهما شئت، فقال: اخترت يمين ربي، وكلتا يدي ربي يمين مُباركة، ثم بسطها فإذا فيها آدم وذريته، فقال: أي رب ما هؤلاء؟ فقال: هؤلاء ذريتُك فإذا كل إنسان مكتوب**

(١) ابن حبان بسند صحيح لغيره (٢٠٨٢).

عُمرُه بين عينية، فإذا فيهم رجل أضوؤهم - أو من أضوئهم- لم يكتب له إلا أربعون سنة، قال: يا رب ما هذا؟ قال هذا ابنك داود، وقد كتبت له عمره أربعين سنة، قال: أي رب زده في عمره، قال ذاك الذي كتبت له، قال: فإني جعلت له من عمري ستين سنة، قال: أنت وذاك، اسكن الجنةَ، فسكن الجنة ما شاء الله ثم أُهْبِط منها، وكان آدم يَعُدُّ لنفسه، فأتاه ملك الموت، فقال له آدم: قد عجلت قد كُتِبَ لي ألفُ سنة. قال: بلى، ولكنك قد جعلت لابنك داود منها ستين سنة، فجحد، فجحدت ذريتهُ، ونسي فنسيت ذريته، فمن يومئذٍ أمر بالكتاب والشهود».



الخاتمة

بهذا القدر الذي أوردناه من سيرة هذا النبي الكريم والفوائد المستنبطة منها نكتفي، سائلين الله تبارك وتعالى أن يتقبله منا بقبول حسنٍ، وأن يثيبنا عليه، وأن يتجاوز عن هفواتنا وزلاتنا، وأن يحشرنا مع المنعم عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين.

وصلوات الله وسلامه على رسل الله أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

كتبه

أبو عبد الله مصطفى بن العدوي

الفهرس

